كارلوس ليسكانو

عربة المجانين

رواية

ترجمة : عدنان محمد

دار الحوار

لمزيد من الكتب والروايات تفضلوا بزيارة
مدونة الحب في غرفة الإنعاش
تابعونا عبر تويتر @mjanen23
فيس بوك 3abeth

عربة المجانين

- عربة المجانين / رواية
- كارلوس ليسكانو
- ترجمة: عدنان محمد

- جميع الحقوق محفوظة للناشر©

- الطبعة الأولى 2007
- الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص. ب: 1018

هاتف وفاكس: 963 41 422339

البريد الإلكتروني: Soleman@scs-net.org

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

تصميم الغلاف: ناظم حمدان

كارلوس ليسكانو

عربة المجانين

ترجمة: عدنان محمد

رواية

Le fourgon des fous

Carlos Liscano

صندوقان في سيارة

منذ عدة أيام وأنا في ثكنة للجيش، مُكَوْجَلٌ[1] حتى كتفيّ: بنطال وقميص داخلي وسروال وحذاء منقوع. عمري ثلاث وعشرون سنة. لا أعرف في أي يوم نحن ولا كم هي الساعة الآن. كل ما أعرفه هو أن الليل مُطبقٌ وأن الوقت متأخّر. لقد أتوا بي للتو من غرفة التعذيب الواقعة في الطابق الأرضي، إلى اليسار من بداية الدرج. طوال الليل وأنا أسمع صراخ أحد المعذّبين، ثم صراخَ آخر، ثم آخر، ثم أخرى أيضاً. لا أفكّر في شيء، أو أفكّر بجسدي. أنا لا أفكّر به، بل أحسّه. إنه قذر، مغطّى بالضربات، تَعِب، رائحته كريهة، نعسان وجائع. في هذه اللحظة من العالم، يوجد جسدي وأنا. أنا لا أقول ذلك لنفسي هكذا، أعرف ذلك: ليس هناك من شخص آخر سوانا نحن الاثنين. سنوات كثيرة ستمرّ، ربما ثلاثون، قبل أن أتمكّن من أن أقول لنفسي ما أشعر به. لن أقول: "بماذا يشعر المرء"، بل بماذا نشعر: هو وأنا.

---

[1] الكاجول: قناع يُغطّى به رأس السجين في أثناء التعذيب.

1

بلغتُ السابعةَ من عمري للتو. تعلّمت قراءة الساعة، ولكني لا أحمل ساعة يدوية. وحدَهم الكبار يحملون ساعة يدوية آنذاك. الساعة اليدوية أداة جادة وغالية يجب الاعتناء بها كثيراً، فلا يمكن أن يُعهد بها للأطفال.

نحن الثلاثة نسكن في سقيفة، أبي وأمي وأنا. هذه السقيفة التي سأسكنها وحيداً طوال عشر سنوات، مساحتها تقارب الاثني عشر متراً مربّعاً. فيها تعيش أسرة ليسكانو، أسرتي. بصعوبة كنتُ أعرف ذلك آنذاك. أنا أحد أبناء أسرة ليسكانو، واسم العائلة هذا نادر في بلادي. تعلّمتُ أن أوضح أن اسم شهرتي ليس لِسكانو ولا لاسكانو ولا لِزكانو، بل إنه ليسكانو، بالياء والسين. حياة كاملة يقتضي شرح ذلك.

في تلك الليلة، أيقظني والدي، وهذا لا يحصل أبداً. لماذا يوقظني؟ ماذا يريد مني؟

الطقس بارد. رأيتُ أمي تحاول أن تُطمئِن أبي وهي مرتدية ثيابها وجالسة على السرير، ويدها على بطنها. ثمة شيئان لم

أفهمهما: أبي الذي أيقظني بلا سبب، وأمي الجالسة على سريرها وهي تمسك بطنها.

قال لي أبي يجب أن نذهب إلى المستشفى لأن أخي الصغير سوف يولد قريباً. منذ بعض الوقت، شهرين أو ثلاثة أو أربعة، قالت لي أمي، كما لو أنها تفكر بأمر آخر، سيكون لي أخ صغير. وكانت تطوي الغسيل وتضعه في الخزانة، ثم سألتني:

هل تريد أن يكون لكَ أخ؟

طبعاً لا، فأنا في أحسن حال كما أنا. ولكني فهمتُ أن أمي لم تكن قلقة من رأيي في هذا الموضوع. كانت تعلن لي النبأ وحسب.

الآن أيقظوني ولا أعرف كم الساعة، لا هذه الساعة بالتحديد ولا الساعة بصورة عامة. حاول أبي أن يُلبسني ثيابي. أبي أخرق. إنه أخرق دائماً، في كل ما يفعله. إنه قوي وأخرق. أمي أفضل من أبي بكثير، فهي تفهمني دائماً، وهي هادئة على الدوام. أمي قوية وماهرة وهادئة. لذا فإنها ساعدت أبي على إلباسي ثيابي على الرغم من أنها لم تكن قادرةً على كثيرٍ من الحركة.

الاثنان ألبساني. وها نحن في الشارع حيث الليل وحيث الطقس أبرد من سقيفتنا. وقفت سيارة أجرة وركبنا. رجلٌ في الحادية والثلاثين وامرأة في الخامسة والعشرين، حامل، وطفل في السابعة، وحقيبة. أعرف أني في تلك اللحظة، لم أكن أفكر في ذلك على هذا النحو: مع الأعمار والتفاصيل، ولكني أعرف أني طفل هكذا، طفل يحسب ويعدّ كل ما يقع تحت بصره، طوال حياته، دون أن يستطيع الامتناع عن ذلك.

2

وصلنا إلى المستشفى: أمي حاملةً بطنها، وأبي العصبي، وحقيبة الملابس، وأنا. أنا، الصبي الصغير، أعرف بالضبط أين وُلدتُ، في أي مستشفى وفي أي يوم وفي أية سنة وفي أية ساعة. لذا أعلم أن هذا المستشفى ليس مستشفاي. فالمستشفى الوحيد الذي ذهبتُ إليه هو ذلك الذي وُلدتُ فيه. المستشفى هنا فخم وليس كمستشفاي الفقير.

لماذا سيولد أخي الصغير هنا، حيث لم أولد؟ أنا أجهل ذلك، ولا أطرح السؤال. أمي ستفسّر لي الأمر ذات يوم. عاملة نسيج لها الحق في هذا المشفى. عندما ولدتُ كانت خادمة ولم يكن لها هذا القدر من الحقوق.

وأبي الذي لا يفهم أبداً الكثير من الأمور تركني في قاعة الانتظار. ربما حسبني رجلاً، وأن الرجل يتدبّر أمره بمفرده دائماً. أو ربما كان عصبياً إلى درجة أنه نسي أن عمري سبع سنوات فقط. ولكنه تركني هنا وغاب مع أمي.

بقيت وحيداً طوال ساعات. ولم يكن لديّ أي شخص أكلّمه ولا شيء آكله أو أشربه، ولا شيء ألعب به. أنا هنا، رجل في

السابعة من عمره. صامدٌ، كما يريدني أبي. في الواقع، إن أبي لا يهمّني كثيراً. وأنا أحاول ألا أسبّب مشكلات لأمي. فلتفعل ما تريد، ولتأتِ بسرعة. إنها تحسب حسابَ كل شيء دائماً، أما أبي فلا يحسب حساب شيء. جلستُ انتظرها. وعندما ستنتهي ستأتي وستقصّ عليّ ما فعلته. إنها تقصّ علي دائماً كل شيء. أما أبي فلا. ليس لديه الوقت أبداً. وليس لديه كلمات. هو لا يتكلّم؛ أما هي فتشرح كل شيء. هما هكذا.

أنا في صالة انتظار هذا المشفى حيث لا يوجد شيء وحيث سيولد أخي. هنا، حيث سيولد، لا يوجد شيء على الإطلاق. ثمة نبتة خضراء ومقعدان، وأشخاص يمرّون بين وقتٍ وآخر، وأنا.

الشيء الوحيد المهم نوعاً ما هنا هو هذه الساعة الجدارية، ولا شيء غيرها يمكن أن ينفع في شيء. نظرتُ إليها بإمعان وحاولتُ أن أقرأ الوقت. لقد قُدّم لي بعض الشرح عن الساعة، ولكني ما أزال لا أُحسن قراءتها. ركّزتُ انتباهي واجتهدتُ في النظر إلى مكوّنات هذه الساعة. ومضى الوقت هكذا. وصرتُ أنظر إليها في فواصل زمنية منتظمة. فجأةً، فهمتُ منطق العقارب. صرتُ أنظر كل خمس دقائق، وأدركتُ أني صرتُ الآن قادراً على قراءة الساعة. ولكن الساعة الجدارية لا تتقدّم بالسرعة التي كنتُ أرغبها لأتمكّن من إثبات ذلك لنفسي. إذا قرأتُ أن الساعة بلغت الثانية وعشرين دقيقة، فليس من المضحك حقاً أن أقول لنفسي بعد خمس دقائق إنها صارت الثانية وخمس وعشرين دقيقة. كنتُ أريد أن تمرّ الدقائق مروراً أسرع لكي أتمكّن من امتحان معلوماتي.

لأوقات طويلة نسيتُ أبي الذي قال لي إنه سيعود حالاً ولم يظهر مرةً واحدة، ونسيتُ أمي التي هي الآن في مكانٍ ما، في إحدى الطبقات، وأخي الصغير الذي سأتمكن من اللعب معه بكرة القدم. لقد تعلّمتُ قراءة الساعة، ذلك هو الشيء الهام الذي سأقوله لأبي وأمي عندما أراهما.

3

فجأةً ظهر أبي. كان تعباً وفرحاً. الساعة تقارب السابعة صباحاً. قال لي إن أمي وأختي الصغيرة بصحة جيدة.

ما معنى هذا؟ لقد وُعدتُ بأخٍ صغير وليس بأخت صغيرة.

نعم، ولكن لم يكن هذا كذلك. إنها فتاة صغيرة رائعة.

لا تفسير لذلك بالنسبة إليّ، وهذا غير منطقي. لم أستطع تصوّر فكرة أنهم أخطؤوا بهذه الطريقة. فمع فتاة لا يمكنني اللعب بكرة القدم ولا حتى أن أفعل شيئاً. ماذا يمكنني أن أفعل ببنت؟

في سيارة أجرة، عدتُ مع أبي إلى البيت، حاملاً هذه الفكرة المستحيلة: إن لي أختاً.

بعد الظهر صحبتني جدتي لأرى أمي. كانت في السرير وإلى جانبها سرير صغير وعلبة. هذه هي "البنت" "الرائعة" التي أوجداها لي.

نحن في اليوم الرابع والعشرين من شهر أيار من عام ألف وتسعمائة وست وخمسين. اليوم تعلّمتُ قراءة الساعة. واليوم وُلدت أختي. شيئان للحياة بكاملها.

4

مونتفيديو، 27 أيار 1972.

منذ ثلاثة أيام بلغت أختي السادسة عشرة من عمرها. واليوم سنقيم احتفالاً من أجلها. لن أكون موجوداً ساعةَ اجتماع الأسرة. أعرف أن أمي ستقلق، وأن أبي سيقول لنفسه إني في مكان ما، مشغول بأمر ما. وستظن أمي أني غير مهتمّ بها.

كنتُ أنوي الذهاب إلى ذلك الاحتفال، وقد أعلنتُ ذلك، ولكني لن أذهب لأني فأنا لا أستطيع. ففي الساعة الثانية صباحاً أتى العسكر وأخذوني من بيتي. سحبوني من السرير، حافياً، بالقميص الداخلي، ووضعوا لي قناعاً، وأوثقوا يديّ خلف ظهري، ووضعوني على الرصيف، مقابل الجدار، ثم ألقوني في شاحنة صغيرة، وانطلقنا.

5

سجن ليبرتاد، 31 أيار 1976.

منذ أربع سنوات وأنا سجين. في هذه اللحظة، رفيق زنزانتي هو الشولو غونزاليس، سبّاك. كان الشولو قد اعتقل وفرّ من سجن بونتا كارّيراس عام 1971. وفي عام 1972 التجأ إلى تشيلي، ثم ذهب إلى كوبا. وفي عام 1975، غادر كوبا عن طريق موسكو، بوينس آيرس، قاصداً مونتيفيديو. وعندما وصل إلى مونتيفيديو أوقف. تلقّى طلقةً في وجهه. وبعد أن عُذّب، نُقل إلى مستعمرة العقوبات ووُضع في زنزانتي. الشولو مسؤول نقابي. لم يذهب إلى المدرسة طويلاً، لكنه رجل مثقف لطيف ومتضامن.

السجناء مولعون بالاستفادة من الزمن ويائسون من ذلك. يجب القيام بعمل إيجابي، عمل من أجل الحياة، يجب عدم الجمود، وعدم الانسحاق بوساطة القضبان. وبعد وقت قصير من تعارفنا أنا والشولو اتفقنا على أن أساعده على تعلّم الإسبانية. إذا كان قادراً على الخوض في نقاشات معقدة وقاسية في جمعية ، وعلى إدارة

الـنـاس وتنظيمهم، والسفر عبر العالم بأوراق مزوّرة، فقد كان يشعر بمصاعب في الكتابة. وبتواضع جم، قَبِل أن أساعده.

بحـثتُ عن كتاب للغة الإسبانية فمرّر لي أحدهم كتاباً مدرسياً يُدَرَّس في الصف الأول الثانوي.

6

بما أنني لم أكن أعرف كيف أبدأ درسي، قرأتُ النص الأول بصوتٍ عالٍ ثم قمتُ بالتعليق عليه: كيف نتعرّف إلى الفعل والاسم والصفة. أشار إلى الكلمات التي لا يعرفها فحاولتُ أن أشرح له معانيها.

ثم انتقلنا إلى التمرينات التي أوردها الكتاب حول هذا الدرس، فحللناها وقررنا أن يقوم كلَّ صباحٍ بقراءة النص وحلّ التمرينات التي سأصحّحها له بعد الظهر. وصار لديه واجبات لليوم التالي.

وشيئاً فشيئاً أضفنا الإملاء وموضوعات الإنشاء. وبما أنه لا يعرف عما يكتب، ويعتقد أن ليس لديه ما يقوله، فقد طلبتُ إليه أن يتكلّم عن موضوعات تتعلّق بحياته وبعمله. وهكذا صار يكتب كيف يُقطع قصب السكر في الأوروغواي وكيف يُقطع في كوبا؛ تقنيتان مختلفتان. وكيف نصنع كوخاً من الصلصال المجفّف، ونفرش سقفاً من القش.

كانت تلك أشياء أجهلها، لذا كنتُ أطلب منه بعض الإيضاحات بعد التصحيح وتفصيلات أخرى. أنا أتعلّم وهو يتعلّم، ها نحن متكاملان.

كنتُ أستخدم قلماً أحمر لتصحيح كتابات الشولو. فقال لي بعد بعض الوقت إن تلك العلامات التي أكتبها على دفتره كامل الترتيب والمعتنى به، كانت تضايقه أشدّ المضايقة. فكل علامة على أية كلمة كانت تعني أن من الواجب عليه أن يكتب هذه الكلمة عشر مرات لكي يحفظها عن ظهر قلب كما علّموني في المدرسة. لم يعجبه أسلوبي، ولكن بما أننا جادّان، وأننا قرّرنا أن نكون كذلك، فقد قبله.

أعتقد أن ثمة أمراً ما يساعدنا على أن يفهم أحدُنا الآخر: ما قلتُه له عن أسرتي وعن أبويَّ اللذين نشأا في الريف. بطريقةٍ ما. أنا وهو عُجنّا من العجينة نفسها، أتينا من العدم. والعدم في بلادي هو عدم امتلاك اسم ولا عمّ ولا أصدقاء معروفين من الجميع ولا أية علاقة مع السلطة. أتينا من اللامكان وها نحن ننوي أن نكون محترمين. ولماذا عليهم أن يحترموني؟ حسنٌ، من أجل شيءٍ ما، من أجل شيءٍ ما نحن قادران على فعله، كأن نبقى واقفين على سبيل المثال، وأن نتعلّم اللغة الإسبانية في السجن.

7

ذات يوم، بعد الغداء وقبل درس اللغة الإسبانية، فُتح باب الزنزانة وقيل لي إن لدي زيارة. أمر يثير الشبهة، فاليوم الاثنين، وكان لدي زيارة يوم الخميس الماضي، واليوم ليس يوم زيارتي. كذلك هو ليس يوم زيارة المحامين، فضلاً عن أنه ليس لدي محامٍ لأن محاميّ سُجن هو أيضاً، وهو في الطابق الرابع. ولقد عيّنت لي المحكمة العسكرية العليا ممثلاً، هو العقيد لستُ أدري ماذا، يلعب دور المدافع عن عدة مئات من المساجين. وهذا السيد لا يأتي أبداً لزيارة أي سجين. إذن هي ليست زيارة لأسرتي ولا لمحاميّ.

يستخدم العسكر هذه الذريعة، بأن يقولوا للسجين إن لديه زيارة، عندما يريدون أن يخرجوه من السجن مرة جديدة ويأخذوه إلى التعذيب. ولا يهمّهم إذا مرت سنوات على توقيفه، إنْ رأوا ضرورة أخذوه إلى الثكنة من أجل استجواب جديد.

في الزيارة السابقة رأيت أمي، وبما أنه ليس لدينا إلا نصف ساعة، فليس من داعٍ لأن يقطع أبي خمسين كيلومتراً ليجلس معي قليلاً من الوقت. أمي تأتي وحيدةً دائماً تقريباً. ويا لها من

مصادفة: فقد وقعت الزيارة السابقة يوم 27 أيار، ها قد مرّت أربع سنوات كاملة على اعتقالي!

خرجتُ من زنزانتي مرتاباً جداً. قادني جنديان إلى غرفة الزيارة. وعندما دخلت لم يكن من أحد. مقاعد إسمنتية فارغة، والهواتف في مكانها، قرب الزجاج الذي يفصل السجناء عن الزائرين. وبعد بضع دقائق دخل أبي. ما إن رأيتُ وجهه حتى عرفتُ ما حدث. عيناه حمراوان. وقال لي إن أمي ماتت. ثم أضاف أنه هو من كان يجب أن يموت، وأنه لم يعد يريد الحياة من دونها.

8

لم أعرف ماذا أقول له، ولم أعرف إلى أين ألجأ، فقد ماتت أمي في الخامسة والأربعين. وسيبقى عمرها دائماً خمساً وأربعين سنة. وسيأتي اليوم الذي سأعيش فيه أكثر منها، وأصبح أكبر سناً منها. سوف تُدفن ولن أكون حاضراً، ولن أستطيع مرافقة أبي، ولن أستطيع رؤية أختي التي ستأتي من بوينس آيرس من أجل الدفن. لن أستطيع، لن أستطيع فعل شيء. كان كل شيءٍ عظيماً إلى درجة أن شيئاً لم يبقَ في رأسي. كانت الأسئلة كثيرة وواسعة بحيث أني لم أعرف كيف أبدأ الإجابة عليها.

بعد خمس دقائق تركوني أودّع أبي وأنا أضمّه بذراعيّ.

أخذوني إلى الزنزانة فرويتُ للشولو القليل الذي أعرفه مما حدث.

وسرعان ما تخيّلتُ خطةً، ولست أدري كيف: لم يحدث شيء. من المؤكّد أن العسكر مطّلعون على وفاة أمي. فإذا بيّنتُ أني متألّم جداً، وإذا بيّنتُ أني ضعيف، فسيستفيدون من ذلك لكي يدمّروني. وبالتالي، لا شيء جديد هنا.

قلتُ للشولو إن علينا أن نتابع درس اليوم. قال لي ألا أفعل ذلك من أجله، وأن بوسعنا أن نحدّد يوم عطلة. أصررتُ على أن يستمرّ الدرس لأننا قرّرنا ذلك.

ثم إن لدي حجة أخرى قلتُها له: لقد أرادت أمي أن أتابع، دون أن أسمح لنفسي بالانكسار. رأيتُ أنه غير موافق، ولكنه فعل ما طلبت لإرضائي.

9

هبط الليل وأتى الحساء، وأُجري التفقّد. يمكننا أن ننام. تكوّرتُ حول نفسي أمام الجدار وغصتُ في الليل. تغلّفتُ به، فأنا أريد أن أضيع في الليل لكي أتمكّن من التفكير بأمي.

لن أراها بعد الآن. وعندما سأخرج من السجن لن تكون موجودة أبداً، ولن أتمكّن من مخاصمتها ولا الضحك معها. من المستحيل إجبار هذه الفكرة على البقاء في جمجمتي. استرجعتُ ذكرياتي. سيكون لدي سنوات لتنظيم ذكريات هذه المرأة وصورها.

من بين هذه الذكريات، ثمة ذكرى واحدة، شيء ما روته لي، وهو ما أفضّله. أمي طفلة تعيش في الريف، في أسرة من خمسة أخوة وأخوات. كان عليها أن تمشي عدة كيلومترات للوصول إلى المدرسة. وكان لديها صندل لم يكن يحقّ لها أن تنتعله إلا من أجل المدرسة. في ذلك الشتاء، كان المطر يهطل، واضطرّت أمي للجري حافية القدمين عبر الحقول، كان الصندل ملفوفاً وموضوعاً بعناية في حقيبتها المدرسية. وصلت إلى المدرسة وانتظرت أن تجفّ قدماها لكي تنتعله. عند الانصراف من المدرسة وضعته من جديد في حقيبتها جَرَتْ من جديد عبر الحقول، تحت المطر، وأنا أعرف أن صندلها في حقيبتها.

10

بعد عدة أشهر وصلنا إلى نهاية كتاب اللغة الإسبانية، وأخذنا الدرس الأخير في الساعة المعتادة. صحّحنا التمرين الأخير بتأنٍ، كما يجب، وكما كنا نفعل حتى الآن. نحن أناس جادّون، نأخذ الأمور بجدّية، وبالتالي كان الدرس جدّياً.

عندما أجاب التلميذ على السؤال الأخير اتّخذتُ هيئةً رصينة وهنّأتُه. لقد نجح بأفضل علامات ممكنة ولهذا السبب قرّرنا أن يكون هناك احتفال في المدرسة. لن نفعل شيئاً بعد الآن طوال السهرة. سوف يطبّق المعارف التي اكتسبها، ويقرأ كثيراً ويكتب لابنته ولا يكفّ عن الدراسة أبداً.

وتصافحنا.

لم يكن ذلك إلا مزاحاً ولكننا شعرنا بأننا كسبنا شيئاً ما على السجن والعزلة والتتفيه الذي يريدون أن يفرضوه علينا. ها نحن منتصرون لبعض الوقت.

11

ساءت حال أبي كثيراً بعد وفاة أمي، وصار يفرط في الشراب. لم يعد يأتي لزيارتي بل صار يرسل عمتي بدلاً منه. كانت أختي تعيش في بوينس آيرس، فأخذته إلى عندها بعد عدة أشهر.

ذات يوم قرّر أبي أن يعود. وما إن وصل إلى مونتيفيديو حتى لبس بدلته ووضع ربطة عنقه وذهب إلى حينا القديم وأخذ يتسلّى بالحديث مع الجيران. كان مغتبطاً وحبوراً، فهو يتكلّم، وكل شيء على ما يُرام.

في اليوم التالي استُدعيت إلى مكان الزيارة. أمر غريب، فليس هذا يوم الزيارات.

ذهبتُ وعرفت أنه في الليلة السابقة، 13 كانون الأول 1978، بعد أن ودّع أبي بيتَه وجيرانَه في الحي، انتحر.

كنتُ أعرف أنه سيفعلها. بل إنه كان قد قال لي مراراً:

"لا أريد أن أعيش من دون أمك."

لم أكن أشكّ في أنه انتحر، ولكن ما كنتُ أتساءله هو: متى وكيف.

قيل لي ذلك تواً، فقرّرتُ ألا يحدث شيء. انغلقتُ كحجر. وسأبقى هكذا طوال سنوات.

في الليل، أمام الجدار، تأتيني الذكريات، طوال الليل.

ولكن كان ثمة شيءٌ غير هذا الألم المنغلق. كنتُ أشعر بغضبٍ مستطير. كنتُ أكره أبي، أكرهه لأنه قتل نفسه، لأنه لم يفكر أني كنتُ بحاجة إليه، أني ما أزال بحاجة إليه.

فيما بعد، بعد أشهر، بعد سنوات، أدركتُ أن ما قام به قد كان بسبب حبه لأمي. لقد انهار عالمه من دون المرّأة التي عاش معها ثمانية وعشرين عاماً، ومع ابنه السجين، وابنته التي تعيش في بوينس آيرس. إن حزن العيش في بلادٍ ابنه فيها نزيلُ معتقل ليبرتاد لهو أصعب من أن يُصاب بالطاعون. لم يعد يستطيع التحمّل فاختار أن يموت. ربما كانت شجاعته، ولحظته، هما الأهم في حياته، عندما اختار اليوم والمكان والطريقة التي سيموت بها. لم يكن موتاً هادئاً، من دون ألم، بل كان موتاً رهيباً ومؤلماً، وكان في الرابعة والخمسين من عمره.

في عام 1985، عندما أخرج من السجن، سأذهب لرؤية المكان الذي انتحر فيه أبي. ليس عندما أخرج مباشرةً، بل سآخذ يوماً لكي أشعر بأني واثق من نفسي وقوي. سأذهب إلى ذلك المكان، وسوف أحاول أن أتخيّل، وسأفهم الوحدة الرهيبة التي عاشها ذلك الرجل في تلك اللحظة. سوف أهديه، من أجل الماضي، كلَّ حناني وامتناني لعمله من أجل تربيتنا. لقد كان رجلاً عطوفاً، اهتمّ بي وحماني، وقام بواجبه بوصفه أباً. مع السنين، سأفهم حقيقةً ساطعة وهي أن تأدية الواجبات ليست هباءً.

12

عندما أنجح في تنظيم ذكريات أبي، سأحتفظ بواحدة منها. كنتُ في الرابعة، وكان لأبي فرس تُدعى برنسيس. كان يستيقظ في الساعة الواحدة صباحاً ليذهب إلى السوق ويشتري خضاراً وفواكه. كان يعود حوالي الساعة السابعة صباحاً، يتناول فنجاناً من القهوة ثم يخرج لبيع بضاعته ولا يعود حتى المساء.

في تلك الذكرى، كان الفصل شتاءً، في الصباح الباكر. لسببٍ ما استيقظتُ مبكّراً جداً، مع أمي وجدّتي. وعند باب البيت كنا ننتظر أبي. فجأةً وعلى الطريق الترابي ظهرت العربة بطيئةً، بطيئةً جداً. وعندما وصلتْ إلينا، ميّزتُ أبي. كان ملتفّاً بأكياس من القنّب تشكّل عليها الصقيع. كان شاباً، عمره أقل من ثلاثين سنة، ووجب على أمي وجدّتي أن تساعداه على النزول لأنه كان فاقداً وعيه من البرد. دخل إلى المطبخ، شرب فنجان قهوته، ثم ذهب مع عربته إلى العمل.

ليست ذكرى جميلة، ولكن هذه هي الذكرى التي أفضّلها عنه.

13

الآن، وبدون أبوين، بدأتُ أعيش في عالمٍ آخر، عالم ليس لي فيه أحدٌ خلفي. ابتداءً من الآن، وبدون أبويَّ، بتُّ أشعر وكأني وحيد على هذا الكوكب. مسؤولية حياتي كلها تعود إليّ وحدي، وليس لأي أحد آخر. حتى الآن، كان من الممكن الاعتماد عليهما حتى ولو ذهنياً. حتى الآن، كان بوسعي أن أعزو أخطائي إليهما. لم يعد بوسعي الآن أن أعتمد عليهما ولا أن أعزو أخطائي إليهما. حياتي لي بصورة مطلقة، سواءٌ في السجن أو في أي مكان آخر. أنا مسؤول عن أفعالي، عن أفعالي كلها. ولكني سأشعر دائماً بأن عليّ أن أكون وفياً للقيم البسيطة التي لقّنوني إياها وللكرامة الأساسية لأهل العمل التي كانت كرامتهم.

بعد سبع سنوات لن أكون في الأورغواي. إذن، حتى اليوم، سأشعر حيثما أكون، وحيث لا يوجد من يعرفني، أني إذا لم يكن لدي من شخص أؤدّي له جردة حساب لأفعالي سواي أنا، فعليّ أن أبقى وفياً لتلك الفتاة الصغيرة التي تجري حافية القدمين تحت المطر في الريف، ولذلك الرجل المتلفع بكيس من القنّب وقد أرعده البرد على عربة. أعرف أيضاً أني أحبّ أن يوجد على هذا

الكوكب مكانٌ سيلتقي فيه بقايا أبويّ. مكان أستطيع أن أذهب لكي أكلّمهما فيه، وأقول لهما إن ولدهما لم يعد سجيناً، وأن أشكرهما على العناية والاهتمام اللذين منحاني إياهما عندما كنتُ طفلاً. سأقول لهما إن ابنهما خرج من محنته كيفما اتّفق، وإنه يعيش. وسأقول لهما إنهما، في الثلاثينيات، لم يستطيعا أن يتعلّما إلا حتى الابتدائية في مدرسة ريفية، فقد أنجبا ابناً كرّس حياته للكتب. أو لن أقول لهما شيئاً. سأقول لنفسي: إن لم تؤدِّ واجب دفن أبويك، فقد أدّيتَ واجب زيارة قبرهما ولو مرةً واحدة في حياتك.

ولكني لم أذهب قطّ لزيارة قبرهما، بل إني لا أعرف إن كان لهما قبر.

14

مديرية شرطة مونتيفيديو، 14 آذار 1985.

الساعة السادسة أو السابعة مساءً. انتظار فرِح ومتوتّر. ها هي أكثر من أربع وعشرين ساعة ونحن هنا. نحن نقارب الثلاثين رجلاً في الطابق الرابع. في الجهة الأخرى، هناك مجموعة من الناس يقبعون في الانتظار نفسه. أمضينا جميعاً سنوات عديدة في السجن، عشراً، اثنتي عشرة. وأحدنا الذي عاش عدة اعتقالات بلغ الستة عشر عاماً.

نعلم أنهم سيطلقون سراحنا هذا المساء، ولكننا لا نعرف في أية ساعة. لا يهمّنا ذلك كثيراً، فقد اعتدنا على الانتظار، على انتظار أي شيء. لقد انتظرنا الزمن اللازم للانتظار، ولم تعد تلك مشكلتنا، بل إنها مشكلتهم هم الذين ينتظرون الأوامر لإطلاق سراحنا.

على الرغم من أن الطابق الرابع يقع تقريباً في وسط كتلة من البيوت، معزولاً، فقد سمعنا الصرخات المتصاعدة من الشارع: من الأهل والأصدقاء الذين وصلوا في الليلة الماضية وهم يغنّون ويحيّون. الريح التي تسري في الباحة تحمل نتفاً من أغاني هؤلاء الذين

يريدون أن يُفهمونا أنهم بانتظارنا. صدى هذه الأصوات يدفئ قلوبنا، وهذا يستحقّ أن ننتظر طويلاً.

بعد ظهر أمس أخرجونا من معتقل ليبرتاد. مشينا في رتل هندي ما يقارب الثلاثمائة متر حتى البوّابة. لأول مرة لم تكن أيدينا مقيَّدة إلى ظهورنا، ولم نكن مرغمين على النظر إلى أمامنا وعلى المشي بصمت. وأصعدونا في حافلة.

وجدنا أنفسنا على الطريق وحولنا عدة سيارات جيب وشاحنات ملأى بالجنود. وعلى طول الطريق إلى مونتيفيديو كانت تلاحقنا طائرة هيليكوبتر. خلال الأيام الأخيرة كان هناك دائماً أناس على باب المعتقل؛ أهل وأصدقاء وصحفيون. وأمس كان هناك سيارة واحدة مع أهل. وعندما رأونا خارجين أدركوا أننا نحن. انطلقت السيارة وأسرعت على الطريق وحاولت أن تتجاوز الموكب. وعند دخولنا إلى مونتيفيديو رأينا أنها معلّقة في إحدى الزوايا.

غالباً ما قطعتُ هذا الطريق بين المعتقل ومونتيفيديو خلال هذه السنوات. لم أرَ المنظر الطبيعي قط لأني كنتُ دائماً منغلقاً داخل شاحنة. والآن، صار بوسعنا أن نرى التغيرات التي طرأت على مداخل المدينة التي لم نعد نتعرّف إليها. فجأة، تبيّن لي أننا ندخل في تيجا، حيّي. كانت الحافلة قد سلكت طريق كارلوس - ماريا - راميريث. ومررنا في المناطق التي أعرفها جيداً، في شوارعنا، وقرب البيت الذي ترعرعتُ فيه، حيث عشتُ حتى صرتُ في العشرين. على بعد عدة أمتار من هنا تعيش الآن أختي. هل كانت أختي في بيتها دون أن تعرف أني أمرّ قريباً جداً منها؟

15

في الطابق الرابع من مبنى مديرية الشرطة، لدينا كثيرٌ من الأشياء لنقولها، وليس لدينا شيء. عليهم أن يُطلقوا سراحنا قبل منتصف الليل. هذا أمرٌ مقرّر، والقانون الذي يأمر بذلك مصوَّت عليه. إذن ستكون هذه بداية الحرية. نحن الآن في منطقة No man's land ، ولكننا ما نزال سجناء.

أنزلونا في جماعات صغيرة. مشيتُ بصعوبة. لقد قرّر أحدٌ ما قبل خمسة أيام أن ينظّم مباراة في كرة القدم في معتقل ليبرتاد قبل إطلاق سراحنا. لطالما لعبت كرة القدم، بما في ذلك خلال سنوات السجن. انكسرتُ مراراً ووُضِعت ساقايَ في الجبس مراراً. لم أكن أريد أن ألعب هذه المباراة، فأنا لا أريد أن يحدث لي مكروهٌ قبل خروجي. ولكن كان من واجبي أن أودّعهم باللعب بكرة القدم، وأصبت بالتواء في كاحلي.

16

دخلنا إلى غرفة بلا نوافذ. خلف أحد المكاتب وقف أربعة رجال أو خمسة باللباس المدني. وكان المكتب مغطّى بالأوراق.

من هؤلاء؟ عسكريون؟ رجال شرطة؟

كانوا جديّين، متوتّرين، لطفاء، ولكننا شعرنا أنهم عصبيون. أنا جدّيٌّ وجاف، كما يجب، ومقيتٌ قليلاً كعادتي، كما اعتدتُ أن أكون مع سجّان.

سألني أحد الرجال عن اسمي، وتفحّص آخر بعض الأوراق، ثم وجد أوراقي.

"وقّع هنا من فضلك."

من فضلك، هذا أمر غريب.

في اللحظة التي سأوقّع فيها أدركتُ أن هذه هي الحرية. فهمتُ أن الرجال الذين خلف المكتب ليسوا عسكريين، وليسوا رجال شرطة. إنهم موظّفون في السلطة القضائية، يريدون أن يمنحونا حرّيتنا. لقد كنتُ مقيتاً وجافاً بلا فائدة.

بعد أن وقّعتُ، مدّ لي أحدهم يده:

"تهانيّ!"

وفعل الآخرون مثله. لم أعرف كيف أقول لهم إني لو كنتُ أعرف أنهم ليسوا عسكريين ولا رجال شرطة لما بدوتُ قليل التربية هكذا. شكرتهم. وأوصلنا الحرّاس إلى الطابق الرابع.

17

واستمرّ الانتظار. نزل سجناء آخرون ليوقّعوا على حريتهم. بعد ساعتين أو ثلاثاً، نحو الساعة العاشرة والنصف مساءً، بدأت الأمور تتحرّك. كنا نشكّل مجموعةً من ثمانية أو عشرة أشخاص. أنزلونا إلى القبو. وهناك كلّمَنا ضابط شرطة شاب.

سوف ننطلق في هذه الشاحنة المغلقة، بنوافذها الصغيرة. قال إنهم سيضعون شرطياً في الداخل، أعزل، مهمته أن يمنع أياً كان من فتح الباب الخارجي. فهناك أناس كثيرون في الشوارع، وقد يكونون خطرين علينا إذا ما تمكّنوا من إخراجنا من العربة.

من الواضح أنه تلقّى أمراً. يجب أن يوصل كل سجين إلى المكان الذي حدّده، وإلى العنوان الذي أعطاه، ويجب أن يصله سالماً معافى.

ما قاله الضابط لا يعنينا أبداً. إنه عصبي، وليفعل ما يشاء. فليضع شرطياً مسلّحاً، أو أعزل أو عارياً أو كما يريد. إنها مشكلته هو. فنحن الذين سنذهب في هذه العربة، سجناء قدماء، معتادون على اللامبالاة تجاه ما يفعله هؤلاء، وتجاه الخراء الذي يقرّرونه. نحن في هذه اللحظة أقوى منه.

الناس الموجودون في الشارع هم أهل وأصدقاء وأشخاص ينتظروننا، ولن يؤذوننا، ولكن من الصحيح تماماً أني لا أعرف ماذا سأفعل إن تركونا عند باب قيادة الشرطة، في الفوضى.

جلسنا في العربة. طالت إجراءات الخروج. وعلى هذه اعتدنا أيضاً. بل كنا أكثر من معتادين، وسيكون الأمر مستغرباً إن لم يتصرّفوا هكذا. يجب الانتظار دائماً. في الواقع هذا هو السجن: انتظار. السجن هو انتظار الوجبات والزيارات والذهاب إلى المرحاض والخروج إلى الباحة وطرود الأسرة والحرية.

عندما يأتي الليل في السجن يقول السجين: "يوم بالناقص" فيجيبه آخر: "يوم بالزائد"، هذا يتعلّق بالطريقة التي نرى بها الأمور. إذا كان هناك يوم ناقص قبل الحرية، فهذا يعني أننا أمضينا يوماً بالزائد في السجن.

18

في القبو، في العربة، الجميع مفرطون في التركيز. والجميع يفكّرون في شؤونهم، مثلما أفكّر في شؤوني. لا أحد يتكلّم إلا ليتفوّه بحماقة، أو بمزحة عابرة. لقد كنا جميعاً عصبيين.

فجأةً بدأ كل شيء يتحرّك. أعطى الضابط أوامره الأخيرة، صعد وجلس قرب السائق. اتّجهت عربة نحو المنحدر المؤدي إلى شارع سان خوسيه. سمعنا صراخ الناس. الآن، نعم، صار الأمر جدياً. مشت العربة إلى الخلف وسلكت طريق الخروج من القبو. صعدَتْ، وصرنا على الرصيف، سمعنا الصراخ، إنه صراخ هائل. سارت العربة على الإسفلت. كسر الناس حاجز الشرطة وارتموا على العربة وأخذوا يضربون عليها، فصارت الضربات ترنّ في الداخل.

انعطفت العربة يساراً في شارع سان خوسيه ثم سارت بأقصى سرعة. أخيراً ها نحن في الخارج. وسنترك الرفيق الأول في بيته بين أهله.

العربة تعبر المدينة. وصلنا إلى البيت الأول، ثمة نور في الشارع. فتح الباب الخلفي. رودولفو سينزل. أنا وهو سلّمنا أحدُنا على الآخر كما لو أننا سنلتقي بعد قليل. تمكّنتُ من رؤية الشارع والناس من بين الشقوق، لكني لم أستطع أن أتبيّن التفاصيل.

19

لفٌّ ودوران في المدينة. لا أعرف أين نحن، ولكن لم تكن معرفة ذلك لتهمّني كثيراً. إننا في مكانٍ ما في الضواحي. وقفت العربة في شارع قليل الإنارة، فيه بيوت صغيرة منخفضة وأناس فقراء. رأينا مجموعة عند زاوية الشارع. نزل أحد الرفاق، وفجأة تعالى الصياح:

"قتَلة! قتلة!"

إنهم يقصدون رجال الشرطة. ونحن بقينا غير مبالين. رجال الشرطة الذين هنا ينفّذون أمراً يعجبنا. وربما كان من المبالغة وصفهم بالقتلة.

لا أعرف كم كان عددنا في العربة، ولا كم عدد من خرجوا مساءً. هذا غريب، إذ لم يخطر ببالي أن أحصي عددنا، وأنا الذي أعدّ كلَّ ما أراه. لن أعرف أبداً كم كان عددنا في هذه العربة، ولا أريد أن أعرف.

بغتةً شعرتُ بغرابة أن أكون إنساناً حرّاً. لأنني إذا كنتُ بخير في عربة للشرطة، مع شرطي وهراوته عند الباب، فأنا لستُ سجيناً. أستطيع أن أفعل بحياتي ما أريد. جميلٌ سماع ذلك،

ولكنه رهيب. والآن؟ ماذا سيحدث الآن؟ من المستحيل أن أسأل أحداً هنا، بين هؤلاء المجانين المنشغلين بفكرة حرّيتهم.

إذا ما أنزلوني في أية بقعة من المدينة فلن أعرف ماذا سأفعل. لا أملك المال، ولا أستطيع أن أشرح من أنا، ولا من أين أتيت. شعرتُ ببعض الخوف. أريد أن أصل إلى مكان معروف، فيه أناس معروفون.

حتى أمس، كنتُ أَعُدّ نفسي شخصاً قوياً، قوياً جسمياً وعقلياً. والآن أشعر أني ضعيف. لا أعرف ماذا سأفعل في المجتمع. ليس لديّ عمل، ولا مسكن، ولا أوراق. أصدقائي هم هؤلاء الناس الموجودون معي، هؤلاء الذين كانوا سجناء، وهم يعيشون وضعي نفسه.

أدركتُ أن الأسوأ قد بدأ الآن. عندما أصل يجب أن أسعى إلى الحصول على أوراق وعلى عمل. خطّتي المباشرة: أصل، أسلّم، ثم أبدأ مباشرةً، فليس لديّ وقت أضيّعه.

طوال سنوات، في السجن، كانت الحرية بالنسبة إليّ سهلاً بلا نهاية، أبيض، يغمره شعاع الغسق. كنتُ أركض عبر هذا السهل، وكان بوسعي أن أذهب في الاتّجاه الذي كنتُ أريده، نحو الأفق. ولم يكن ذلك السهل قفراً، بل كان محفّزاً. كان فيه كل شيء. ولم يكن الوصول إليه يتعلّق إلا بي، وبمصلحتي، وبرغبتي في التقدّم.

والآن بدأت الحرية. وهي لم تعد سهلاً. إنها عربةٌ تتقدّم في ليل المدينة، في أحياء وشوارع لا أستطيع تحديد أسمائها، وربما لا أعرفها. هذا غيرّ محفّز، بل إنه مُقلِق. هذا تحدٍ.

في السجن كان كل شيء بسيطاً: لم نكن نستطيع فعلَ هذا ولا ذاك. لم يكن هناك من شيء تقريباً يمكن القيام به. إذا وصل الطعام في الوقت المحدّد، أكلنا في الوقت المحدّد. وإذا وصل متأخّراً، أكلنا في وقت متأخر. وإذا لم يصل في الوقت المحدّد ولا متأخّراً، لا نأكل. هذه هي الحرية التي بقيت، وهي ليست لا شيء. آخرون يقرّرون عني. وأنا أقرّ أن ما يقرّرونه سيّان عندي. بالنسبة إلى سجين: الحياة تعني مقاومة، يوم، وليلة إضافية. أما بالنسبة إلى المواطن الحر فما هي الحياة؟ الحياة! ما معنى هذا؟

في العربة، في الوقت نفسه، لدي انطباع بحرية لا نهاية لها. أستطيع أن أختار الطريق الذي أريده، وهذا أعظم وأوسع وأكبر من أي حلم. الطرق كلها ولانهائية الحياة أمامي. لكن ذلك يشلّني. أي طريق أختار وأنا أعرف أني، باختياري لأحدها، سوف أفقد الباقي؟

وهكذا فإن الحرية تجريد، هي شيء غير معيش. عليّ أن أقرّر خلال لحظة. أنا أقرّر بالفعل، ولا أستطيع أن أُخطئ. لا يخطر ببالي أن أول شيء يجب أن أقوم به هو أن أجلس وأرتاح. أبداً. ما يناسبني هو العمل، ومباشرةً. أشعر أن هذه الرحلة نحو الحرية هي ضياعٌ للوقت. يجب أن أكون في مكاني، أقوم بشيءٍ ما.

بعد لحظة، سأشعر أني أعيش أصعب لحظة في حياتي. ولكي أخرج منها لدي غريزة حيوان في دغل، ما يعتاد عليه السجين: أرى دون أن أنظر، أسمع دون أن أصغي، وأعرف دون أن أبيّن ذلك.

20

في 14 آذار 1985 استعدتُ حريتي، وفي 11 كانون الأول 1985 هبطتُ في ستوكهولم.

نحن الآن في 24 كانون الأول 1985، وأنا عند نينا، وهي أرغويانية كانت سجينة ثم نُفيت منذ سنتين. هذه أول سهرة عيد ميلاد لي منذ عام 1971. يوجد عشرة أشخاص أو اثنا عشر حول المائدة، بنات نينا وخوانخو، وشخصٌ آخر لم أعد أذكر اسمه، وفتاة أورغوانية قدّموها لي للتو.

جرى حفل العشاء كما يُتوقّع في هذا النوع من اللقاءات، يُضاف إليه شيء خاص: نخب خوانخو الذي يلتقي ببناته بعد خمس عشرة سنة، وكذلك نخبي أنا الذي نلتُ حريتي أيضاً وأنا بعيد عن أسرتي. ما زلتُ أنا وخوانخو نعتاد على الحياة في المجتمع، في بلد لا نعرفه، ونأكل فيه أشياء لم نذقها من قبل، وخلف النافذة مشهد من الثلج.

الرسميات الخاصة بهذا اليوم صارت خلفنا، كرسميات لقاءات وفرح السجناء الذين استردّوا حريتهم. ما نزال على السفرة

والأحاديث بدأت تتشعّب. وأخذت كل مجموعة تتكلّم من ناحية، ورويت قصص ودعابات.

فجأةً أخذت المرأة التي تجلس مقابلي تضحك، تلك الأرغويانية التي لا أعرفها. ضحكت حتى القهقهة، كأن انفجاراً يملأ البيت. نظرتُ إليها. نظرتُ إليها وأنا أقول لنفسي إن ما أفكّر به ليس ممكناً، ولا بدّ أن يكون هناك خطأ في ذاكرتي.

لا أعرف هذه المرأة ولا أتذكّر اسمها الذي قيل لي منذ ساعة عند تقديمها. لأنني لا أعرفها، ولأنني لا أعرف إن كانت الفرصة سانحة، لم أجرؤ على طرح السؤال الذي يشكّله دماغي. فإن قالت لي لا، فلن أعرف أن أشرح لها بعد ذلك لماذا ظننتُها شخصاً آخر. وإن قالت لي نعم، فإني سأخالف ما يبدو لي من قواعد التهذيب الأساسية عندما أورد في هذا الاجتماع ذكريات غير مستحبّة.

لا أستطيع الامتناع عن النظر إلى هذه المرأة. وقد بدأتْ تتنبّه لذلك. الموقف غير مريح. نعم، يجب أن أطرح عليها السؤال، ولكن كيف يقولون ما سأسألها؟

وسط الأصوات انحنيتُ نحوها لأكلّمها دون أن يتنبّه أحد. سؤالي صيغ في رأسي، ولكن لا بدّ من تمهيد أو من شرح لئلا أبدو وكأنني أهذي، إذا ما كان جوابها سلبياً. في اللحظة التي كنتُ سأبدأ فيها بالشرح تمهيداً للسؤال، سمعتني أسألها: "ألستِ المجنونة أم الكلاب؟"

نظرت إليّ وصرخت:

"نعم، نعم، أنا المجنونة أم الكلاب."

إنها نبرة الصرخة نفسها التي خرجت منذ ثلاثة عشر عاماً من قاعة التعذيب، وأتت إلى زنزاناتنا لتمزّق آذاننا.

"وكيف عرفتَ أني المجنونة أم الكلاب؟"

لأني كنتُ في الزنزانات العليا.

بهذا الصوت من المستحيل أن يبقى سؤالي وجوابها بيننا نحن الاثنين، وأنا الذي أردتهما ألا يثيرا الانتباه.

روت أولغا بصراخ شديد ما حدث. عندما كان العسكر يستجوبونها، كانوا يهدّدونها، بالإضافة إلى التعذيب، بقتل كلابها. ولكونها سجينة جيدة، فقد كانت تثير فضيحةً كبرى لأمر في منتهى التفاهة، لئلا تُسأل عما لديها أكثر. فإن كانت لا تريد أن يقتلوا كلابها، فهي لم تكن ترغب أبداً أن يسألوها عن أي شيء كان. كانت تأمل أن توقفهم عند هذه المرحلة، فيكتفون بفكرة أن مجرّد قتل كلابها يثير اضطرابها، وهي بالتالي مجنونة.

وكلما اقتيدت أولغا إلى قاعة التعذيب كنا نسمعها تصرخ:

"ليس الكلاب! ليس الكلاب!"

كانت أذني قد احتفظت بهذه الصرخة الحادة بهذه الدقة، ما أتاح لي أن أتعرّف إليها بعد هذه السنين كلّها.

21

في الأول من تشرين الثاني 1986، كنتُ أتنزّه مع آنا في وسط ستوكهولم، في أجمل جزر العاصمة السويدية، سودرمالم، والتي ستغدو حيّي طوال سنوات عديدة.

هناك مقبرة بروتستانتية قديمة جداً، ومقاعد للجلوس في ظل الأشجار صيفاً، وطرق يسلكها الناس للذهاب إلى بيوتهم، ويركب عليها الأطفال درّاجاتهم.

في هذه الليلة المبكرة، لم يكن برد الخريف قارساً كما هو هنا عادةً. حدّثوني عن عادة في هذه البلاد: في الأول من تشرين الثاني، يذهب الناس إلى المقابر ويشعلون شمعة على قبور موتاهم أو أحبّائهم، وهذا عمل ينمّ عن الورع والحضارة والثقافة.

عندما وصلنا إلى سياج المقبرة قلتُ لآنا إني أريد الدخول. إنها مقبرة صغيرة أكبر بقليل من تجمّع للبيوت، مع كنيسة جانبية.

دخلناها كما ندخل إلى حديقة عامة. رأينا في الظلام شموعاً مضاءةً على الأرض، أو على قبور. ورأينا خيالات الناس تتحرّك بصمت. مشينا في المقبرة، وحدّثتني آنا عن هذه العادة في بلادها. كنتُ إلى جانبها، أصغي إليها باحترام، ولكني كنتُ أعرف أن

لديّ أيضاً بعضاً من فضول السائح. ربما لأن أمواتي ليسوا هنا، سمحتُ لنفسي اتّخاذ مسافة الفضولي.

أدركتُ أن أمواتي، برأيي، ليسوا في أي مكان. جرى ذلك معي بسرعة، ولم أُعِر قطّ كثيراً من الاهتمام لهذا النوع من الاحتفال.

عندما وصلنا إلى وسط المقبرة، وقفتُ أمام قبر. كان أحدهم قد وضع عليه شمعة ثم ذهب. كانت الشمعة تحترق وحيدةً. اقتربتُ أكثر. وكانت آنا تقف خلفي. فجأةً، دون أن أدري، ودون أن أريد ذلك، أخذتُ أبكي.

بكيتُ بصمت، وتركتُ دموعي تسيل على وجهي. فعلتُ ذلك بحيث لا تلاحظ آنا شيئاً، وأنا ما أزال أدير ظهري إليها.

بدأتُ أمشي نحو المخرج، وآنا تتبعني دون أن تقول شيئاً. غادرنا المقبرة وأنا أمشي، أمشي دون أن أتكلّم، خلال عدد لا أعرفه من الدقائق. أعرف أن آنا رأتني أبكي. وما إن صرتُ قادراً على الكلام، حتى توقّفتُ لحظةً ورجوتها أن تعذرني. مرّرت آنا يدها على وجهي ومسحت دموعي.

شرحتُ لها أني لم أكن لأحسب أبداً أن هذا سيحصل معي. ها قد مرّت عشر سنوات على وفاة أمي، وثمانٍ على وفاة أبي. لم أبكِ قطّ، ولم أشعر قطّ بحاجة إلى البكاء.

عند ذلك شعرتُ من جديد أني أحبّ أن يكون هناك مكان، مكان تكون فيه بقايا أبي وأمي، مكان أستطيع أن أذهب إليه وأقول لهما: اغفرا تأخّري. لقد عانيتُ في الوصول إليكما، ولكن ها أنذا، خرجتُ من السجن.

22

نيسان 1995، منذ ستة أشهر وأنا في مونتيفيديو. قرّرتُ أن أبحث عن أبويَّ. لا أعرف ماذا أفعل، ولا أعرف لمن ألجأ.

ذهبتُ إلى مقبرة الشمال. من المستحيل أن أحصل على ما أريد. ومع ذلك فقد عرضتُ مشكلتي على الموظّف الذي استقبلني. أعطيتُه اسمَي والديَّ وتاريخ وفاتهما.

هل يمكن تحديد مكانهما؟

لا يعرف. ولكنه سيرى ما يستطيع أن يفعله.

فتح سجلاً كبيراً كان قد سجّل فيه جميع واقعات الدفن.

خلال دقائق، حدّد مكان الاثنين.

يبدو أني محظوظ. البقايا غير المطالَب بها تذهب عادةً إلى المحرقة. ولقد حدث تأخيرٌ ما بالنسبة لوالديّ، وما يزال من الممكن إيجادهما.

سألني إن كان لديّ سيارة.

فقلتُ له نعم.

ركبنا السيارة واتّجهنا إلى طرف المقبرة الشاسعة. دخلنا إلى مستودع توجد فيه مئات الصناديق.

لم يكن لدي كثيرٌ من الأمل على الرغم من تأكيدات الموظّف، فإيجاد شيءٍ ما هنا أمرٌ في غاية الصعوبة.

سلكتُ ممراً بين الصناديق المكدّسة. وبعد عدة أمتار وجدتُ أحدهما بين الصناديق وقد ألصقت عليه لوحة معدنية كُتب عليها: فيريموندو ليسكانو، 1978 /12/13.

وجدت في هذا الصندوق عظام أبي. في هذه العلبة يوجد أبي. بقيتُ مسمَّراً في مكاني. وصل الموظّف إلى جانبي.

– هل وجدتُ شيئاً؟

أريتُه الصندوق.

– حسنٌ هذا واحد منهما.

وانطلقنا بحثاً عن الثاني.

ذهبنا إلى مكان مغلق. المعلومات تشير إلى أن رفات أمي موجودة هنا. ويجب فتحه، وصل حفّار قبور. شرح له الموظّف المقصود وعن أي صندوق نبحث.

قال الحفّار إن هناك عملاً كثيراً، وطلب يومين لفتح المكان.

هل يزعجني أن آتي لاحقاً؟

لا، أبداً أستطيع أن آتي في أي وقت، الجمعة؟

حسنٌ، يوم الجمعة.

23

يوم الجمعة التالي، عدتُ إلى المقبرة. بحثتُ عن الموظّف الذي استقبلني. ركبنا السيارة وقصدنا المكان الذي كنا فيه منذ يومين. عندما وصلنا، رآنا الحفّار واقترب منا. عند أسفل أحد الجدران كان هناك صندوقان. الصندوق الذي وجدتُه وصندوقٌ آخر كُتب عليه: رامونا فليتاس، 31 / 5 / 1976.

انحنيتُ ومرّرتُ يدي على الصندوقين، والرجلان صامتان.

بقيتُ مقرفصاً لبعض الوقت، لا أدري بماذا أفكّر.

"اعذراني، إني أضيع وقتكما".

يجب ألا أقلق بهذا الصدد.

"والآن، ماذا يجب أن أفعل"؟

سوف ننقلهما إلى مكان آخر، إلى حيث يمكنهما أن يبقيا عشرين سنة.

لا يريدان أن أحملهما، قاما هما بذلك. وضعاهما على المقعد الخلفي للسيارة، وأعطيتُ بخشيشاً للحفّار.

انطلقنا والموظّف إلى جانبي، وعلى المقعد الخلفي عظام والديّ. وهذا ما ردّدتُه: أبواي على المقعد الخلفي، أدركتُ أني أصل إلى

مكان ما متأخّراً، ولكني وصلتُه. لقد حصلتُ عليهما، إنهما معي، وأنا معهما.

ثم سلّمتهما لموظّف آخر وضعهما معاً، الواحد بجانب الآخر، في عش آخر. أعطيتُ بخشيشات أخرى، ثم صعدتُ إلى سيارتي.

خرجتُ من المقبرة، وأسرعت، سرتُ مسرعاً جداً، وقطعتُ عدة كيلومترات.

فجأةً توقّفتُ، أنا فارغ وذكيٍ في آن واحد. حتى لو أن الكاتب يميل إلى تبرير كل شيء، وإلى فكْرَنةِ كل شيء، فأنا قادر على أن أقول بالضبط ما أشعر به في هذه اللحظة. لقد أدّيتُ للتو، واجباً هو واجب دفن والديّ. كان ذلك ديناً عليّ نحو أبويّ ونحو نفسي. شعرتُ براحة كبيرة. على الرغم من أني فكّرتُ غالباً أن من واجبي القيام بذلك، لم أكن أعلم أن ذلك سيمنحني هذا الارتياح. ربما كانت تأدية واجبي نحوهما تعني ببساطة تأدية واجبي نحو نفسي. كنتُ أظن أن لديّ أشياء كثيرة أقولها لهما. وفي الواقع لم يكن لدي شيء. بكل بساطة كنتُ سأراهما ثانيةً وسأنظر إليهما وأنا مقابلهما.

هو وجسده

1

أعود سنوات إلى الوراء.

كنتُ في زنزانات ثكنة عسكرية، وتحت الزنزانات تقع غرفة التعذيب. كنا سبعة سجناء، واستثنائياً تسعة أو عشرة. كانوا يوقفون أناساً أمام الجدار في الممر، ثم يأخذونهم، ونعود من جديد سبعة. كانوا دائماً رجالاً، ولم نرَ نساءً قطّ. في مكان آخر في هذه الثكنة، يقال إن هناك مجموعة من ستين إلى سبعين سجيناً، وهناك يختلط الرجال بالنساء. نعلم أيضاً أن هناك سجناء في كافة ثكنات البلاد، وفي قيادة شرطة مونتيفيديو، وحتى في مفوّضيات الشرطة. ونعلم أيضاً أن بعض السجناء ماتوا تحت التعذيب. نحن في 27 أيار 1972، ويبلغ عددنا المئات. وفي السنة التالية سيكون هناك عشرات آلاف المعذَّبين. والجلادون، كم كان عددهم؟

2

لدى الجميع فكرة عن التعذيب. ومن الواضح أن الإنسان عندما يعلم أنه يمكن أن يُعتَقل، يفكّر في ذلك، لحظة السقوط. ولكن أحداً لا يمكنه أن يكوّن فكرةً عن التفاصيل. التفاصيل لها علاقة بمعرفة حميمية ونسبية بالجسم، ليس بالجسم البشري بصورة عامة، بل بجسم كل فرد. التعذيب يشبه مرضاً: فهو لا يؤلم الجميع بالطريقة نفسها، ووحده من تعرّض له يعرف بماذا يشعر.

ما هو التعذيب؟ أهو الضرب؟ أم الكهرباء؟ أم الخازوق؟

في الأسابيع الأخيرة، قبل مجيئي إلى هنا، كان الظلم في مونتيفيديو هائلاً، حتى صار من الممكن لمسه. الجيش والبحرية والقوى الجوية تسيّر دوريات مسلّحةً ومهدّدة ومخيفة ليلاً نهاراً، شوارع مغلقة ومراقبة في كل ساعة. جو متوتّر وعنيف، عنيف جداً. يمكننا أن نقرأ عنه في الصحف ونسمعه في الإذاعة. ولقد أُحصي ما يزيد عن عشرين قتيلاً بين نيسان وأيار. ومن المستحيل ألا نفكر أننا سوف نُعتَقل بين ساعة وأخرى، وسوف نعذَّب. ومن المستحيل أن نتساءل كيف سنتحمّل التعذيب.

لا أهمية لما نعرفه أو لما تمكّنا من قراءته عن التعذيب. فتجربة التعذيب مختلفة تماماً عما افترضناه. وهي فريدة بالنسبة إلى شخص.

قلت لنفسي قبل أن أُعتقَل: من الأفضل لي أن أقتل نفسي. أتحمّل حتى لا أعود أستطيع، وعندئذ لن يتمكّنوا من تعذيب جثة هامدة. ولكن ثمة فائدة في صالحي لم أفكّر بها: أنا في الثالثة والعشرين من عمري، وأنا بصحة جيدة، وقلبي في حالة جيدة. إذن تحت التعذيب، سوف أفكّر أن سنّي وصحتي الجيدة سيكونان عالة عليّ. إذا توقّف قلبي في أثناء التعذيب فسأموت وينتهي كل شيء. لكن قلبي لا يتوقف. إنه يعمل كقلب شاب قوي. مارس الرياضة طوال حياته.

تحت التعذيب يفضّل أحدنا الموت، وينتهي به الأمر أن يطلب من الجلاد أن يقتله، لكن هذا يرد: "هذا ما تريده، أن نقتلك، ولكننا لن نفعل ذلك."

3

الموت تحت التعذيب لم يكن مقصوداً من الجلادين، ولكن بكل بساطة، هم لا يفعلون شيئاً لتجنّبه. لم يفعلوا شيئاً مما كان بوسعهم أن يفعلوه. لقد قتلوا من يريدون برصاصة. أو رموه في النهر، أو من أعلى سطح. لا تهمّ الطريقة، فقد قتلوا هؤلاء الناس لأنهم قرّروا أن يقتلوهم. لكن الموت تحت التعذيب لم يكن مخطّطاً له. غير أن هذا لا يرفع عنهم المسؤولية، ولا يقلّل من خطئهم. لقد كان دائماً تحت تصرّفهم جهازٌ طبي يقول لهم إلى أي حد يستطيعون الذهاب، ومتى يجب عليهم أن يتوقّفوا ويريحوا المعتقَل. لكن الجلاد لا يستشير الطبيب قبل بدء عمله. كما لا يسأل المعتقل إن كان التعذيب من "مضادات الاستطباب" بالنسبة إليه، فهذا ليس من آداب المهنة. الموت تحت التعذيب لا يتم بالمصادفة، بل بسبب العنف والإهمال من قبل الجلاد أو رؤسائه أو الأطباء. الأطباء العسكريون لم يؤهَّلوا في الثكنات، بل في الجامعات. يمكن أن نتساءل كيف أن الجامعة التي تؤهّل الأطباء الذين يموتون تحت التعذيب، هي نفسها التي تؤهّل الأطباء الذي يساعدون على التعذيب.

4

الليل مضطرب وصاخب. التعذيب يبدأ حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، وقلّما كانوا يعذّبوننا في النهار. وخلال الليل كنا نسمع صراخ رجال ونساء ونباح كلاب يحرّضهم العساكر على المعذَّبين لكي يروّعوهم. أما الضبّاط فيصرخون ويهدّدون ويشتمون. بعد أن أمضينا وقتاً في الزنزانات صرنا ننام حتى مع صرخات المعذَّبين اليائسة.

في قاعة التعذيب هناك رائحة رطوبة وتبغ. وكمكان عمل، هي غير مضيافة وغير نظيفة. يوجد فيها برميل معدني كبير سعة مئتي ليتر، مقطوع إلى قطعتين، ومليء بالماء. يدخل السجين أو السجينة إلى القاعة بطريقة عنيفة، ويُدفع بقسوة، ويُضرَب. لم يبدأ التعذيب بعد. بل إنه مجرّد تخويف: هذا ما يسمّونه "التليين".

ثمة جلاد شرّير وجلاد مهذّب. المهذّب يُبلغ المعذّب أنه لا يحبّ التعذيب، لكن زميله رجل قاس جداً، لا يثرثر، وهو عنيف ومستعدّ لفعل الأسوأ.

ولإثبات ذلك يُظهر الشرّير سطوته.

وإذا ما تُرك السجين بين يديه سرعان ما يتعلّم كيف تسير الأمور.

لكن المهذّب لم يتخلّ بعد عن تطبيق طريقته المهذّبة ويتابع:

هو لا يحبّ أن يُعذّب أحدٌ، ولكن في حال امتناع المعتقَل عن الكلام بإرادته، فإن المهذّب مضطرّ حينئذٍ لترك زميله يعمل عمله، وهو ذو طباع سيئة جداً.

وإذا أراد المعتقَل فإن كل شيء يُسوّى بلا عنف. يكفي أن يجيب على ما يُسأل عنه.

على أية حال يجب أن يعلم السجين أنه حتى لو لم يتعاون، فإنهم سيحصلون على المعلومات، والشرّير موجود لهذه الغاية.

وبالتالي، من الأفضل بالنسبة إلى السجين وبالنسبة إليهم أن يتجنّبوا التعذيب واللحظات السيئة التي يمكن أن تحدث. أليس ذلك صحيحاً؟

إذن يجب البدء بالأشياء دون عنف.

ويجب أن يعلم السجين أن لديهم كل وقت العالم لكي يستخرجوا المعلومات منه. فهل السجين مستعدّ للتعاون؟

السجين مذهول، لكن رأسه يعمل في كل الاتجاهات. لا يستطيع أن يتظاهر بالقسوة، ويجب عليه أن يخترع إجابات محتملة على أسئلة ممكنة. ويمكنه أيضاً أن يهذي بوعي، مباشرةً، ومنذ اللحظة الأولى. ثم يدعم هذا الهذيان، خلال أيام وأسابيع وأشهر. هذا صعب، وخطر.

لا يختار السجين الهذيان، بل يختار طريقاً آخر، ملتوياً، وخطراً أيضاً. لا يعرف إلى أين يؤدّي. ولكن هل يظنّ أنه يستطيع أن يتابع سلوكه بالمقاومة، وبالاحتيال؟ بإبداء الشجاعة؟ ويعد السجين بالتعاون.

حسنٌ، إذا كان يريد التعاون فليبدأ بقول كل ما يعرفه.

هنا يكمن سوء التفاهم بين الجلاد والسجين. لأن السجين يقول إنه يريد التعاون تماماً ولكنه لا يعرف شيئاً.

في الواقع، إن الضابط والسجين يلعبان اللعبةَ نفسها. السجين يريد أن يعرف ما يعرفه المحقّق عنه، لذا فإنه ينتظر السؤال الذي سيوجّهه. إذا لم يكن للسؤال علاقة به يشعر بالهدوء. وإذا كان السؤال يتعلّق نوعاً ما به، أو بنشاطه، أو إذا كان لديه معلومات يمكنها أن تساعد الجلاد، فهو يحاول عندئذٍ أن يعطي جواباً يحمل أقل إشارات ممكنة. يأخذ عدة ثوان لكي يقول شيئاً مقنعاً وقابلاً للتصديق، ولا يضيف أية معلومة لا يملكها الجلاد سابقاً. بالتالي، من الأفضل الانتظار، ومتابعة الإنكار، بصورة قاطعة، إنكار كل شيء. حتى يطرح الجلاد سؤالاً محدّداً، لكي يتمكّن من صياغة كذبة محدّدة لها هيئة الحقيقة.

لا يكفّ الجلاد عن القول إنه من أجل اختصار الوقت وتجنّب التعاب للطرفين، يجب على السجين أن يقول كل ما يعرفه.

ونصل إلى النهاية.

ينتهي الحوار، أو كما يريدون أن يسمّوه، عندما يكرّر السجين أنه لا يعرف شيئاً.

الجلاد المهذّب يغضب، أو يتظاهر بالغضب، ويترك مكانه للجلاد الشرّير. الشرّير يضرب السجين، بقبضة يده أو يرفسه. السجين لا يعرف إن كان من ضَرَبَه هو المهذّب أم الشرّير، ويفترض أن الاثنين فعلا ذلك.

الجلادون يكونون دائماً أربعة أو خمسة، يقتادون السجين إلى برميل الماء الكبير. يغطّس أحدهم يده فيه ويحرّك الماء.

هل يسمع السجين صوت الماء؟ حسنٌ، إذا لم يتكلّم فسيجد نفسه في الماء.

بعد فترة تطول أو تقصر، يشعر الجلاد بالسأم ويحاول أن يغطّس السجين في البرميل. ليست المهمة سهلة، فالسجين يقاوم. عند ذلك تبدأ عملية "تليين" عضلات العدة. وتحت الضرب ينحني السجين من الألم فيغطّس رأسه أولاً في الماء.

كم يدوم ذلك؟ من المستحيل قياسه. إنه دهر بالنسبة للسجين.

5

بسبب الضربات على المعدة، ولحظة تغطيس السجين في الماء، ينعدم الهواء من رئتيه. يكون رأسه مغطّى بالكاجول، وتكون يداه مقيَّدتين خلف ظهره. يبتلع الماء، ويشعر بالغرق. يأتيه الانطباع بأنه سيموت غرقاً.

عندما يُخرَج رأسه من الماء يكون الكاجول القماشي مليئاً بالماء، فتمتدّ يدٌ وتضغط الكاجول على الرقبة. ويتأخّر الماء عن السيلان. الإحساس بالغرق يستمر بضع ثوانٍ أخرى، ويصرخ السجين بأقصى ما يستطيع. ليست هذه صرخات ألم عادية، بل هي أقرب إلى صراخ حيوان، حيوان يائس، فمه وأنفه لا يسمحان له بالتنفّس، صوته يتقطّع كسلسلة انفجارات. إنه زئير أكثر من كونه صراخاً. جسمه يتحرّك ويقفز. لا يوجد هواء في أي مكان.

6

عدد المعارك التي يخوضها السجين اثنان، والمعركتان غير متكافئتين. الأولى ضد الجلادين، كثيري العدد، والذين يستطيعون فعل كل شيء، بينما لا يستطيع السجين فعل شيء، حتى إنه لا يعتمد على سائر جسده للدفاع عن نفسه، لا يملك يديه، ولا يرى، وبالكاد يتنفّس. الزمن والتعب والألم والضعف الجسدي، كلها تلعب ضدّه. في هذه الجولة ليس للسجين ما يكسبه، ولديه كل شيء ليخسره. بالقوة الجسدية، والعقلية، والحظ والغضب، والحقد. هذا المساء، ربما استطاع أن يتعادل. ولكن في المرة القادمة؟

الجلاد لا يستطيع القيام بكل شيء، حتى لو كرّر بصرخات حادة: "لدينا كل وقت العالم لكي نستخرج منك المعلومات". السجين يعرف أن هذا الكلام غير صحيح. كلّما قاوم السجين، وكلما مضى الزمن، تفقد المعلومات طزاجتها، وتكف عن كونها مفيدة. ربما كانت المعلومات التي يمكن للسجين أن يعطيها هذه الليلة، والتي قد تتيح توقيف أشخاص آخرين، لن يكون لها فائدة في الفجر، الجلاد مستعجل، وهذا في غير صالحه.

ينتهي الأمر بالجلاد أيضاً إلى أن يتعكّر مزاجه ويتعب ويتعرّق ويتّسخ ويشمئز. هكذا يبدأ يشرب، ويفقد السيطرة على نفسه، ويضرب من أجل الضرب، بلا حِرفية، وهذه سيئة أخرى. إنه يُمضي لياليه في التعذيب أو في الشارع يعتقل الناس، ويدخل برفسات كبيرة البيوتَ التي فيها عائلات ونساء وأطفال. ولا يستطيع الاهتمام ببيته وبأسرته.

بعد سنوات كثيرة، سمعتُ قصةً لستُ أدري إن كانت صحيحة. أحد ضبّاط الثكنة التي أوجد فيها، وكان شابّاً، متزوّجاً حديثاً، يقوم بدورية في الشوارع ليلاً، شعر برغبة في المرور إلى بيته، ورؤية زوجته، الشابة، الوحيدة، والتي لم يرَها منذ عدة أيام. لم تكن الزوجة تعلم أن زوجها سيعود إلى البيت في تلك الساعة. أمر الضابط سائقه أن يقف أمام بيته. نزل من السيارة، فتح الباب، دخل، فوجد زوجته في السرير مع عشيقها. شهر الضابط مسدّسه وقتله.

المعركة الثانية التي يخوضها السجين هي مع نفسه. يتكلّم أم لا يتكلّم؟ في كلتا الحالين هو خاسر، وليس من تعادل في هذه الجولة. إذا لم يتكلّم يستمرّ التعذيب، والسجين لا يعرف حتى متى. والألم أيضاً. إذا ظنّ السجين أنه سيتحمّله بثباتٍ حتى النهاية، ولا يتمكّن من ذلك، بل وينهار، فقد يكون ذلك كارثياً عليه، وقد يقوده إلى إعطاء كافة المعلومات التي بحوزته دون مقاومة، ودون أن يضطرّ الجلاد إلى انتزاعها منه.

وإذا تكلّم المعذّب فسيواجه عدوّه اللدود، وسيكون وحيداً مع نفسه، أسابيع وأشهراً وسنوات، وسينتابه شعور بأنه خراء، وسيتساءل لماذا؟ وسيقول لنفسه إنه كان بوسعه أن يتحمّل أكثر، يتحمّل العذاب قليلاً، ليلةً أخرى، جلسةً أخرى، تغطيسة أخرى لرأسه في البرميل.

7

عندما يكون السجين في الماء يُبدي قوة لا يمتلكها عادةً، يهزّ ساقيه، ويحرّك جذعه، ويضرب رأسه بجدار البرميل. يجب أن يمسك به اثنان من الضبّاط عندما يكون في الماء، لئلا يجرح رأسه، ولئلا يغوص كلّياً. إذا غاص كلّياً، فهو جسدٌ ثقيل يصعب إخراجه، ويمكنه أن يغرق. إنها مسألة ثوانٍ. لحظة سهوٍ ويكون لديهما جثة يُخرجانها من الماء.

عندما يُخرَج يتحرّك بيأس، ودون أن يدري يضرب من يمسكان به. مهنة قاسية هي مهنة الجلاد، فهي تتطلّب القوة والقرار، ونسيان النفس.

طولي أكثر من متر وثمانين، ووزني يقارب الثمانين. أنا كتلة من اللحم والعظم يصعب تحريكها. حتى عندما لا يقاوم جسمي، عندما يكون لحماً ميتاً، ليس من السهل تحريك وزن كهذا وقامة كهذه.

كان هناك ملازم قصير القامة، لا يتجاوز طوله بكثير متراً وخمسين سنتيمتراً، وقد صار مشهوراً كجلاد في الأورغواي وخارجها. ذات ليلة، بعد أن أخرجوني من البرميل، تركوني

أسقط أرضاً، وبدأ الملازم يرفسني بقدميه. أدركتُ أني أُضرَب وأن يدي المغلولتين إلى ظهري تتألّمان، ولكني لم أتألّم. كان دأبي في تلك اللحظات أن أجد هواءً، هواءً، كنتُ بحاجة لهواء العالم بأسره. لا بدّ أنهم أمسكوا بالملازم لكي يكفّ عن رفسي.

لم يكن أمراً عادياً أن يضربوا شخصاً على الأرض بعد خروجه من البرميل. والسبب عرفته فوراً، فقد كان الملازم القصير قد تلقّى المهمّة، مع شخص آخر، بوضعي في البرميل. وكنتُ طويلاً جداً وقوياً جداً بالنسبة إليه، وبينما كنتُ أخبط بقدميَّ ورأسي داخل الماء، وجّهتُ إليه رفسةً في وسط وجهه، فجن جنونه. وعندما أخرجوني أخذ بثأره مني وأنا مرمي على الأرض ووجهي مغطّى بالكاجول ويداي مغلولتان.

8

نحن في شهر حزيران، إنه الشتاء، والطقس بارد. بعد أن يتعرّض السجين إلى التعذيب وهو موثق اليدين خلف ظهره، يوقَف في مواجهة الجدار وساقاه متباعدتان جداً، في زنزانته أو في الممر. كاحلاه يتورّمان وساقاه تتورّمان وعموده الفقري بالكاد ينتصب شاقولياً.

يداه تؤلمانه بسبب القيد المشدود، وهو يفقد الإحساس، أولاً في الإبهام، ثم في بقية الأصابع، ثم في اليد كلّها. القيود مصمّمة بحيث أنها تُشدّ من تلقاء نفسها. وإذا حاول السجين أن يوسّعها حصل على نتيجة معاكسة، إذْ تُشدّ حتى تنغرز في لحمه. من الأفضل تركها كما هي. ولكن عندما ينتفض السجين في أثناء التعذيب فإنها تشد من ذاتها، ومن العبث طلب توسيعها لأن أحداً لن يكترث بذلك. من الأفضل لهم أن تبقى مشدودة، فهي تؤلم باستمرار، وهذا يشكّل جزءاً من عملية التليين.

مع مرور الوقت يبدأ القيد بتشكيل جرح في اللحم. وفقدان الإحساس في الإبهام يدوم طويلاً بعد نهاية التعذيب، طوال سنوات.

إذا خرج السجين من التعذيب خائراً جداً، يُرمى على فراش ويبقى عليه حتى يأتوا ويأخذوه من جديد. ذلك لأن التعذيب هنا قد يُعاد في أية لحظة، والسجين لا يعرف ذلك بعد.

9

ماء البرميل قذر ورائحته كريهة. وقد يتقيّأ السجين داخل الماء، أو يترك فيه لعابه، أو شعره أو طاقم أسنانه. وعمل الجلادين ليس عملاً سهلاً. وعلى الجلاد أن يبذل جهداً حقيقياً لكي يغطّس رأسَ شخصٍ في البرميل. وما إن يصبح الرأس في الماء حتى يحرّك الشخص ساقيه ويبذل جهوداً يائسة لئلا يغرق. وعندما يُخرج يكون مبتلاً من رأسه حتى خاصرتيه، ويسيل الماء داخل بنطاله حتى قدميه. والضبّاط أيضاً يبتلّون. في قاعة التعذيب يكون الجو صاخباً أحياناً، إذا أُضيفتْ إلى أنين السجناء صرخاتُ الجلادين، فتفوح منها رائحة التبغ والعرق والكحول والبول، ومعقّم المراحيض. رائحة البؤس الإنساني تفوح. إنها رائحة لا يمكن تبيّنها، ولكنها موجودة، وتغطّي قاعات تعذيب العالم بأسره. إنها رائحة نوعين من البؤس: بؤس المعذَّب وبؤس الجلاد. والرائحتان مختلفتان، وكذلك البؤسان، لكنهما يصيبان الحيوان نفسه.

10

يحاول الجسم أن يتكيّف مع المواقف جميعاً. لا أحد يعرف متى سيؤخذ إلى قاعة التعذيب، وكل شخص يحاول أن يتأهّب للوقت الذي سيأتي دوره فيه. من الضروري أن تأكل كل ما يُقدّمونه لك، وأن تستريح حتى عندما تكون واقفاً أمام الجدار، وأن ينام السجين حتى عندما يكون مبلّلاً، ومكوجَلاً ومغلول اليدين إلى الظهر. ربما كان أسوأ الأحاسيس عندما يُرفع السجين بعنف وهو نائم لكي يغطّس في البرميل بعد دقيقتين فقط. فأنتَ لا تستطيع تحضير نفسك لذلك، ولا تعرف ما سيسألونكَ هذه المرة، هل هي الأسئلة المكرّرة سابقاً ذاتها؟ أم إن الجلادين تلقّوا أوامر أخرى ليسألوك أسئلة جديدة؟

أحياناً عندما لا يكون لديهم أحد يسألونه، ولا يعرفون ماذا يسألون، يقومون بـ "إعادة مرور". والمرور الثاني يقوم على تعذيبٍ جديد لسجناء استُجوبوا عشرات المرات سابقاً. إنهم يُستجوبون عن أي شيء كان، "على المصادفة". وبما أن الضبّاط لا يعرفون أيّة معلومات يطلبون فإنهم يطرحون أي سؤال.

بعـد عـدة جلسات من التعذيب يستطيع السجين أن يميّز متى يكـون الجـلادون علـى أرض آمـنة، ومتى يتعثّرون، ومتى يقومون بـ"إعادة المرور" وليس باستجواب حقيقي. يكون التعذيب محتملاً أكثر في أثناء إعادة المرور. فالجلادون يتعبون بسرعة، وينتقلون إلى سجين آخر، ثم آخر.

11

خُصِّص "مسؤولٌ" لكل سجين، وهو يكون عادة نقيباً إذا كان السجين "مهمّاً". ويُمنح الملازمون والملازمون الأوائل السجناءَ "الأقل أهميةً".

المسؤول سيد السجين. ربما ليس سيد حياته، لأنه إذا أراد أن يقتله فيجب أن يحصل على إذن، ولكنه سيد ما تبقّى كله. والسجين "مُلْك" المسؤول عنه. في حالي أنا، كنتُ ملكاً لنقيبٍ هو من اعتقلني. كان نقيب "ي" يدّعي أنه عادل.

"إذا أعطيتني المعلومات التي أريدها، فسوف أعاملكَ معاملةً جيدة."

أما كيف سيثبت النقيب مفهومه عن العدالة فذلك أمرٌ يتعلّق بي أنا.

وهذا غير صحيح، فهم جميعاً يقولون الكلام نفسه. نقيب "ي" يكبرني بعدة سنوات. قد يبلغ عمره الثلاثين، وهو أضخم مني قليلاً، وأقصر مني قامةً، صَموت، له صوت أجشّ، يدخّن طوال الوقت، ويقدّم لي سيجارةً أحياناً.

ملكية المسؤول لسجينه مطلقة. والسجين ينام بالقدر الذي يراه مسؤوله مناسباً، ويأكل إذا أراد المسؤول، ويذهب إلى المرحاض بقدر ما يسمح له المسؤول بذلك. ويُقيَّد من الأمام أو من الخلف، بحسب ما يريد المسؤول، ويحصل على بطّانية بأمر المسؤول. إنه "سيّده"، ولكن ينتمي كلٌّ من الاثنين للآخر. السجين ملكية حصرية، ويمكن أن يكون المسؤول سيداً لعدة سجناء في آنٍ واحد.

كما يدير المسؤول تعذيبَ المعتقَل، يتعلّم معرفته في الصميم. إنه يراه في أسوأ الظروف، أي عندما يكون أقرب إلى الكائن البشري. يراه يتألّم، ويسمع صراخه، ويشعر بمقاومته العبثية كحيوان في شرك. عندما يطلب السجين أن يُترَك ليتنفّس، أو ألا يُضرَب، أو عندما يريد الذهاب إلى المرحاض، أو عندما يكذب، أو عندما يختلق الكلام، أو عندما يُهان، يكون المسؤول عنه موجوداً. وعندما يجوع السجين ويعطش ويبرد أو يرتعش تحت كاجوله، يكون المسؤول موجوداً. وعندما لا يعود السجين إلا لحماً متألّماً ومغطّى بالبول وكريه الرائحة وخرقةً مبلّلة على فراش قذر، يكون المسؤول موجوداً. لا شيء يخصّ المعتقَل غريب على المسؤول عنه.

12

لستُ أدري إن كانت هذه المعرفة ـ لأنها معرفة حقيقة، وعميقة، وتشبه نوعاً ما الدخول إلى أعماق الكائن مع مصباح صغير باليد ـ تجعل المسؤول أفضل. لستُ أدري إن كانت معرفتي بهذا الشكل تجعل المسؤول عني أفضل. أنا لا أعتقد، على أية حال، أن هذا يدَعُهُ غيرَ مبال.

عندما وجدتُه مرةً في السجن، بعد عدة سنوات، وعندما أراد أن يتكلّم معي وقدّم لي مقعداً، وعندما رفضتُ وبقيتُ واقفاً، وعندما رفع الكلفة بيننا وأنا خاطبتُه باحترام، وعندما سألني عن أخبار صحّتي، وأسرتي، وإن كنتُ أنام جيداً وآكل جيداً وأتلقّى البريد، عندئذٍ أعطاني انطباعاً بأنه كان قد فكّر.

ربما لم تكن إلا رغبةً من قبلي بأن يكون جسمي وأجسام آخرين كثيرين قد نفعوه في شيءٍ ما. إنها رغبة مغالِطة زمنياً وغبية، وليس ثمة زمن فعلي للتعبير عنها، وكان يمكن أن تُصاغ هكذا:

ليت الألم الذي يسبّبه لي المسؤول عني يقدر على أن يولّد عنده واحداً على ألف من الأفكار التي تخطر ببالي وأنا أفكّر أن على

الأرض كائنات مثله. ليته فقط، عندما سيفطس بالسرطان، كما فطس غيره به، وعندما أعرف أنه مات به، وبعد عدة سنوات، بعد أن أُصبح شخصاً حراً، في بحث دؤوب عن حريته... لبت المسؤول عني يستطيع عندئذٍ أن يستفيد من ذلك لكي يُدخل في موته كل موتٍ يُميتني إياه الآن غريقاً في البرميل. ليس هذا من باب الانتقام، ولا السخرية، ولا المزاح. أتمنّى له حقاً ألا يموت دون أن يُعرَف حتى النهاية. وليكن هكذا.

13

يعتني المسؤول الجيد بسجينه. لا يسمح أن يعذّبه الآخرون ولا أن يضربه الجندي المناوب من تلقاء ذاته، ودون سبب. المسؤول الجيد يكون عطوفاً على سجينه: لا يعذّبه أبداً زيادةً عما هو ضروري. ويكون غيوراً: لا يسمح أبداً لأي ضابط يساويه رتبةً أو أدنى منه رتبة، أن يعذّب سجينه.

وأحياناً، عند الفجر، يُمضي الضابط بعض الوقت في الذهاب إلى الزنزانة ليتحدّث مع سجينه بأمور لا تتعلّق مباشرةً بالمعلومات من أجل التعذيب. قد يسأله عن أسرته، وكم عدد أفرادها، ومن هم، وماذا يفعلون. بل إنه يعرّف سجينَه بمشاعره ومشاغله الاجتماعية والسياسية. وقد يحدّثه عن أصله، وأنه هو الآخر ينتمي إلى الشعب. بل قد يعرّفه بأنه غير راضٍ عن الطريقة التي تسير بها الاستجوابات، ولكنه ليس هو من يأمر. وبالتالي يجب على السجين أن يعرف، من وجهة نظر معينة، أن الاثنين ضحيتا قرارات عليا خاطئة.

بعد هذه الاعترافات، هل يحتاج السجين إلى شيء خاص؟ لا؟ حسنٌ، عندئذ يذهب المسؤول، فلديه أشياء أخرى ليقوم بها. ربما

كان هناك رجل أو امرأة أمام الجدار، في مكان آخر من الثكنة، ينتظر أن يستجوبه، ويتمنى أن تُكسر ساقه، أن تُطلق عليه رصاصة في معدته، أن تتفجّر الثكنة ويفطسوا جميعاً ـ مسؤولاً وضباطاً وجنوداً وكلاباً ـ لكي يتمكّن من الهرب ويخرج راكضاً ويعود إلى بيته، إلى اليدين المحبوبتين، إلى الحرية.

14

وجود المسؤول يمنح الأشياء نظاماً، في الثكنة، وكذلك للسجين. المسؤول هو مرجع السجين، وهو مزيج من الأب المتسلّط الذي يعرف العقاب، وسيّد عبيده، وإله صغير يعطي الألم والطعام والماء والهواء والملاذ والصحة والخروج إلى المرحاض. المسؤول شخص ضروري في عالم الألم هذا.

لا أحد ينكر أهمية المسؤول. ومع ذلك هناك أناس لهم رأي آخر، ومنطق آخر. باختصار شديد: هناك أناس يعتقدون أن المسؤول ليس كل شيء، ولا يستطيع أن يغطّي قطاعات حياة سجينه كلّها.

بعد بعض الوقت في الثكنة، يصل السجين والمسؤول عنه إلى نوع من العلاقة تقوم على أن يُبدي المسؤول نوعاً من التفضّل على سجينه. ربما لا يكون ذلك تفضّلاً، بل إن المسؤول لا يعود يرى سجينه بموضوعية. يعتقد أنه يعرف كل شيء عن سجينه في حين أن السجين قد يخفي عنه جانباً مهماً من حياته ومن نشاطاته. لذا فإن الأشخاص الذين يفكّرون، المنطقيون، يقرّرون أن يغيّروا المعايير ذات ليلة. السجناء الذين يُظن أنهم يمتلكون معلومات

هامـة، يكفّـون عـن الانـتماء للمـسؤول عـنهم لعـدة سـاعات، ويُستَجوَبون من مسؤول آخر.

خـلال وقـت قـصير، ولكن بقوة، يعذَّب نحو عشرة سجناء بلا تمييـز، بمعـدّل نصف ساعة للسجين الواحد، ويستغرق ذلك الليل بأكملـه. ومـن المـستحيل أن تـتحمّل مجموعة واحدة من الجلادين خمـس سـاعات مـن التعذيب. يستطيع السجين أن يتحمّل ذلك، أمـا الجـلاد، فـلا. لـذا يكـون هناك أدوار. وحتى لو كانوا جميعاً داخـل القاعـة، فـإن كـل مـسؤول يـستجوب معـتقلاً غـير معتقله الخاص.

15

في أثناء "الجلسات الخاصة" تظهر دائماً معلومات جديدة. ربما لا تكون جديدة لكنها تسمح بالربط بين معلومات كان الجلاد قد حصل عليها سابقاً ولم يتمكّن من فهمها حتى الآن، ولا من الربط بينها واستخلاص النتائج منها. من الصعب معرفة إن كان لجميع المعتقلين أسماء مستعارة أو ألقاب، وربما عدة أسماء أحياناً. في هذا فقط تنفع هذه الجلسات الخاصة، فهي تضيء مسائل الأسماء المستعارة فقط.

في ليل الحقيقة هذا، حيث "التعاطف" بين الجلاد والسجين موضوع على المحك، لا تقوم الحقيقة إلا بتوطيد خصوصية العلاقة التي توحّد بينهما. إذا لم تعطِ الجلسة الخاصة أية نتيجة، يستطيع المسؤول أن يثق بسجينه. وبالمقابل، إذا أعطى السجين، تحت التعذيب الشديد والقصير، معلومةً لم يكن المسؤول عنه يعرفها من قبل فإن العلاقة بينهما تتراجع، ويشعر المسؤول أنه تعرّض للخيانة. لكن هذا يثبت أن هناك شيئاً ما بين الاثنين، شيئاً انقطع عندما يكتشف المسؤول أن سجينه كذَبَ عليه. إنه

يثور ويلوم سجينه لأنه لم يعطِ المعلومة إليه هو، ولأنه وضعه في موقف حرج أمام رئيسه وزملائه.

طوال عدة أيام يُبدي المسؤول لسجينه أنه اقترف خطأً لا يُغتفر. ولا يعود يأتي صباحاً إلى زنزانته ليتبادل معه الحديث، ولا يعود يعطيه سجائر، وباختصار: لا يعود يهتم به كما في السابق.

ولكن بما أن المسؤول عطوف، ومتفهّم بالنتيجة، فهو يظهر لسجينه بعد عدة أيام أنه سامحه. ولكن على ألا يتكرّر هذا أبداً، وعلى أن يعطيه كل ما لديه من معلومات وإلا فلن يثق به أبداً.

16

في الزنـزانات مراحيض، والحصول على إذن بالتبول هدفٌ دائم. والجنود المعنيون بالسجناء لديهم إيقاعهم الخاص، وربما أوامر، فهم لا يأخـذون الـسجين إلى المـرحاض عـندما يطلـب مـنهم ذلـك بـل يـتمهلون، علـى الـرغم مـن أنهم لا يفعلون شيئاً إلا البقاء جالسين، فهم لا يجيبون طلب السجين. لذا يطلب السجين الإذن بالذهاب إلى المـرحاض قبل أن يشعر بالحاجة للتبول. بهذه الطريقة ربما سُمح له بالتـبول عندما لا يستطيع. كما يجب عدم الإلحاح، فقد يكون لذلك أثـر عكـسي. الجندي يتشبث بالشكل ويقرر أن يعاقب المتوسِّل، فلا يأخذه إلى المرحاض قبل عدة ساعات.

وإذا ألححـنا كـثيراً، فقـد نخاطـر بـأن يقـول الجـندي لمـن سيخلفه:

"لا تأخذ هذا السجين إلى المرحاض فهو يتخابث".

ربمـا يكـون مـردّ ذلك هو أن الجنديّ يتعرض لضغط كبير. فهو يحـرس سـاعات طـويلة ويـنام قلـيلاً، وليس لديه إذنٌ بالعودة إلى بيـته، و قد يتعرض لعقوبة قاسية جداً على أي خطأ صغير أو أي سـهو. إنـه يفـضل عـدم القـيام بأية مبادرة والبقاء سالماً. من أجل

اصطحاب سجين إلى المرحاض الذي يبعد ثلاثة أمتار، عليه أن يفكّ قيد يدي السجين الذي هو خلف ظهره، ويضعه من الأمام، ثم يعيده في النهاية إلى خلف الظهر. هذا العمل يثير سخط الجندي. وربما عرّضه إلى خطر معين. والنتيجة: هو لا يأخذه إلى المرحاض. السجين ينتظر، وفي النهاية، بصورة إرادية أو غير إرادية، يبول على نفسه. في أثناء برد الشتاء يسبب البول الذي يسيل على طول الساق ويبلل البنطال لحظةً من السعادة. فحرارة البول حتى وإن كنا نعرف أنها ستترك رائحةً وأنها ستهيج الجلد، تريح من البرد، وفي الوقت نفسه تريح المثانة للحظة.

التبرز هدفٌ سام. يجب أن يقوم به السجين وهو مكوجلٌ، إذن هو لا يرى الثقب في الأرض. ويجب أن يوضع القيد من الأمام. ثم يجب على الجندي أن يفك القيد عندما ينتهي السجين ويريد أن يمسح. ثم عليه أن يضع القيد خلف ظهره. إنها عملياتٌ كثيرة.

وعلى الرغم من أن هذا ليس له أية أهمية ـ لأن الكاجول يمنع من الرؤية ـ فإن السجين يعرف أن المرحاض ليس له باب وأن الجندي موجود، متكئٌ على إطار الباب، وأنه ينظر إليه أو يتحدث مع جندي آخر. مع مرور السنين يعتاد السجين على أن يقضي حاجته علناً وفي أي مكان بما في ذلك في ساحة مليئة بالناس. ولكنه ما يزال يحافظ على عاداته القديمة ويحتاج إلى حميمية.

و نظراً إلى كثرة المصاعب، يفضل السجناء عدم التبرز. فيصابون بالإسهال أو بالإمساك. وأنا كنت مصاباً بالنوع الثاني، فقد كنت أمضي أربعة أسابيع أو خمسة أو ستة دون أن أتمكن من التبرز.

17

يـتحمل السجين لأن لجسمه قدرةَ مقاومةٍ غير محدودة. فإذا لم يقاوم جسمُهُ يموت، وتكون نهاية التعذيب.

ولكن في البداية، ثمة ما هو أقوى وأكثر ضرورة من قدرة الجسم علـى تحمـل الألم، هـناك شـيءٌ مـا يجعـل السجين يتحمّل. هذه ليـست إيديولوجيته، وهذه ليست أفكاره، وليس الشيء نفسه عند الجميـع. المعـذَّب يتـشبث بشيءٍ ما يتجاوز المعقول والموصوف. إن مـا يدعمـه هـو كـرامته. هـي ليـست كرامة المناضل السياسي، بل كـرامة أخـرى، أكثـر بدائـيةً، مصنوعة من قيم بسيطة، لا يعرف متـى تعلّمهـا، ربمـا علـى طاولـة مطـبخه عـندما كان طفلاً، أو في العمـل، أو علـى مقعـد المدرسـة. وهـي ليـست كرامة مجرّدة، بل كـرامة خاصـة، كـرامة أن علـيه أن ينظـر في عيني أبنائه ورفيقته وأهلـه وأصـدقائه. وحتـى لـيس أمـام كـل هؤلاء: يكفيه أن يريد، يوماً، أن يشعر بالكرامة أمام شخص واحد. لهاتين العينين يقاوم، ومـن أجـل هـذه النظـرة المقبلة يغـوص في مأساته الخاصة وينضمّ ثانـيةً ويـصرخ ويكـذب ويـريد أن يموت لكي يسكّن ألمه، يريد أن يعـيش لكـي يتذكـر يـوماً أنـه حتـى تحـت الـتعذيب حـافظ على

الكرامة التي تعلّمها، ويتذكّر أنه لم يثق بجلاده قطّ، وأنه كر وأنه شعر بأنه قادر على قتله بيديه، وأن يستحمّ في دمه، وأن يدمّره فلا يبقى منه حتى غبارُ عظامه.

لأن الكراهية، الكراهية البسيطة، تساند أيضاً، وتساعد على قضاء الليلة، وليلة أخرى، وعلى تحمّل الموت المتعاقب في البرميل، وتحمّل صرخات الرفاق.

بعد خمسة عشر عاماً من الحرية المستعادة، بقي الكابوس يعود، ولكن بصورةٍ أقلّ فأقل. أنا في بيتي ويأتون لاعتقالي. أعرف أنهم هنا، أمام الباب، وأنهم سيدخلون، فأقفز من السرير وآخذ بالبحث عن سلاح. أكرههم، أكرههم حتى الثمالة. أبداً، وإلى أبد الآبدين، لن يعتقلوني بعد الآن، لن أعود إلى الكاجول، ولا إلى جلسات البرميل، ولا إلى قَرف جسمي. لن أقتلهم، ولكني سأجعلهم يقتلونني.

وأبحث، أبحث، ولا أجد. ليس لدي سلاح، فأنا أعيش بين كتبي وأوراقي. وأيأس. لا أريد أن أهرب، لا أستطيع، فهم كثر، هم هنا، وبيتي مطوَّق. وإذا لم أجد ذلك السلاح، فلن أستطع دفعهم إلى قتلي، وسيأخذونني.

أستيقظ، وأنا اشعر الخوف. ليس خوفاً منهم، بل من نفسي، ومن مشاعري، ومن هذا الكره القديم جداً والعميق جداً الذي ما يزال يعيش في مكان ما بداخلي، وأفكّر: هل هو أنا ذاك الرجل؟ هل أنا هكذا؟ هلَ أنا قادر على فعل ذلك؟ وأسأل جسمي، وهو غير القادر على النسيان.

ويطلع النهار وأعرف أنني لا أكرههم، وأني لا أتمنى موتهم. إنني أحتقرهم فقط. ولكن بعد شهر، بعد سنة، سيعود الخوف من جديد. وفي حلمي سوف أقرّر مرةً أخرى، دون أن أفكّر بذلك، ودون أن أكون قد فكرتُ بذلك قطّ في اليقظة، أن من الأفضل لي أن أموت على أن أشعر من جديد بالاشمئزاز من جسمي. هذا الحيوان القذر، المليء بالبول، وهذا اللحم المتفسّخ من فرط الضرب.

18

نحـن لا نستحم ولا نحلق ذقوننا. والرائحة تفوح من أجسادنا. لم نكن نعير اهتماماً كبيراً للرائحة. فلدينا مواضيع أخرى تشغلنا: أن نعـذّب بأقـل مـا يمكـن، وألا نعطـي معلومات للجلادين، وأن نأكـل، وأن نـستريح، وأن نـنام. ولكـن أحياناً، وفي أثناء النهار، عـندما لا يكون هناك تعذيب، يشم السجين رائحة العرق واللعاب الملتصق على لحيته وعلى الكاجول، ورائحة شعره وشعور الآخرين الـتي تبقـى في الكاجـول عـندما يوضـع الـرأس في الـبرميل، ونشم رائحـة الـبول والأنفـاس الكـريهة لأن أسـابيع تمرّ دون أن ننظّف أسـناننا. والاشمئـزاز مـن الجـسم يخـتلف مـن شـخص إلى آخـر. فبعـضهم يـتحمل روائـح جـسمه أكثـر من البعض الآخر. على أية حـال، ينتهـي بـنا الأمر أن نعتاد عليها، أو أننا لا نعتاد، ولكننا نعرف أننا لا نستطيع الاهتمام بروائح أجسادنا.

19

لدى السجين مشكلات أخرى أكثر أهمية، أو مشكلة واحدة: التعذيب. والتعذيب يعني محاولة السجين عدم الكلام، ونسيان كل ما يعرفه. لكن التفكير بأننا نستطيع أن ننسى ليس تقنيةً جيدة، لأن الذاكرة تعود في اللحظة التي لا نتوقعها، تحت التعذيب. إذن نحن لا نحاول أن ننسى بل نحاول أن نحتفظ بما نعرفه في الزاوية الأكثر اختباءً في دماغنا، وأن نغلقه على أي دخول، بما في ذلك دخول ألمنا الخاص الذي يرغمنا على فتح المكان الذي يوجد فيه ما يريد الجلاد أن يعرفه.

ولكن في الحالة التي يفتح فيها الألم مكان المعلومة، من الأفضل تنظيم الأجوبة على أسئلة محتملة. إذا سئلتُ كذا فسأجيب بكذا. أنا لا أعرف فلاناً. وفلانةٌ أعرفها منذ أن كنا أطفالاً وليس لدي أية علاقة سياسية معها، بل مجرد صداقة.

في هذه الأمور يمضي السجين الساعات. على الرغم من أنه في بعض اللحظات لا يستطيع أن يتجنب أن يمر تفكيره في طرق لا يقترحها وعيه: ذكريات جميلة، والأهل الذين لا نعرف أخبارهم. وثمة فكرة ثابتة: إذا ما فررت فإلى أين سأذهب لئلا يجدوني؟

هنا يأتي الهذيان. العقل يتوه على غير هدى ويثرثر ويسمع أصواتاً. وعندما يدرك السجين أنه يهذي يحاول أن يركز على الشيء الوحيد الذي يهمه: التعذيب القادم، والكلمات التي يجب أن يبتلعها.

20

يخضع الجسم للاختناق في برميل الماء، وللضربات وللقذارة. إنها أحاسيس جديدة تماماً على السجين. وبعد سنوات طويلة، عندما كنت مريضاً لا أستطيع حتى تحريك ذراعيّ، وصلت إلى نتيجة مفادها أن الألم الجسدي هو باب للتوصل إلى معرفة النفس. عندما أكون مريضاً، يتبين لي أن هناك مظاهر لنفسي لا أعرفها، تشبه ما يشعر به المرء تحت التعذيب: بلوغ حدٍ نعطي عنده أي شيء لتخفيف الألم والإحساس بأن لا شيء لدينا أقرب من النفس ولا أكثر أهمية، وأننا نحبّ جسدنا أكثر.

الألم الجسدي يمكن أن يسببه التعذيب أو المرض. وأول شيء نريده هو أن يزول الألم، وكل شيء بعد ذلك ثانوي. المريض لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا أن ينتظر نتائج العلاج الطبي، أما المعذب فإن الارتياح يتعلق به هو نفسه. يكفيه أن يتكلم لكي يتوقف تعذيبه. وهنا يبدأ الصراع: إذا تكلم لكي يتجنب الألم فعليه أن يتحمل تأنيب ضميره الذي سيكرر على مسامعه أنه سلّم رفاقه. لذا فهو يختار الألم بقدر ما يستطيع، ويعرف أنه يجبر جسده على الألم وعلى المقاومة، لكي يبقى عزيزاً أمام نفسه.

ولكن متى ينتهي الألم؟

هذا يتعلق بالجلادين، فهم الذين يحددون اللحظة التي يجب أن يتوقف فيها استجواب هذا السجين أو تلك السجينة. ولكنَ الألم يتعلق أيضاً بالسجين: إذ يكفيه أن يعطيهم المعلومات التي يريدونها حتى يتوقف الألم. ولكن حينئذ يصحو الضمير: هذا الألم يمر، وسينتهي في لحظة معينة. ويطلب الضمير بعض الوقت من الجسد، بعض الوقت أيضاً، ليلةً أخرى. لأن ألم الجسد سوف يهدأ يوماً، أما الآخر فلن يذهب أبداً وسنعيش معه.

21

القذارة باب آخر لمعرفة النفس. الروائح الكريهة والبول على الثياب واللعاب وبقايا الأطعمة الملتصقة على اللحية والشعر القاسي بعد انقطاع عدة أسابيع عن غسله، والجلد الذي يبدأ بالتساقط بسبب غياب الشمس والنظافة، كلها تثير الاشمئزاز. لا أحد يطيق شخصاً كهذا إلى جانبه، ولكن على الإنسان أن يتحمل نفسه. وهذا الجسد القذر، ذو الرائحة الكريهة، والمُضنى من الضرب ومن قلة الراحة والمتخم بالنعاس، والذي لا يستطيع أن يحرّك قدميه إلا بإذن، يثير الاشمئزاز. يمكن القول، كصورة قوية: "هذا مقرف". وشيء آخر يمكن الإحساس به: "أنا من هو مقرف."

ولكن لا يمكن أن نطلب من جسمنا أن يقاوم الألم وفي الوقت نفسه نقول إنه يثير اشمئزازنا. لذا فإننا نشعر بالعذاب من أجل هذا الحيوان. إنه يثير الاشمئزاز ولكننا نريد أن نحبّه لأنه كل ما لدينا، ولأن كرامتنا تكون بمقاومته. كرامة ما، لأن ما يريد الجلاد هو أن يشعر السجين بالاشمئزاز من نفسه. وأن يتجرّد من الدفاع إلى درجة أن يعتقد أنه لا يساوي شيئاً، وعندئذ يكون إغلاق الفم والكذب والمقاومة بلا معنى. فإذا كنا لا نساوي شيئاً، وإذا كنا

نشمئزّ من أنفسنا، فعمَّ سندافع تحت التعذيب؟ لن ندافع حتى عن ذكرياتنا المقبلة.

تعوزني الوسائل لأشرح كيف أن الاشمئزاز من النفس تجعل الإنسان ينظر إلى نفسه نظرةً مختلفة، وكيف أن ذلك يدوم مدى الحياة. هذا بُعدٌ يبدو لي أن الحياة العادية لا تعطيه، أو أنها لا تعطي إمكانية رؤية هذا المظهر البدائي والجوهري الذي يقضي بأن نعرف الحيوان في أنفسنا: الحيوان الذي نحن، والذي كنّاه دائماً، والذي يمكن أن نكونه في أية لحظة، لأننا نختار أن نكونه من جديد، أو لأننا نُرغم على أن نكونه.

بعد سنوات كثيرة رأيتُ جسدي وفكّرتُ به كحيوان صديق. ولا بد أني ممتنّ للاشمئزاز الذي شعرتُ به يوماً تجاهه عندما أدركتُ أنني لم أكن أتحمّله ـ ولكنه كان كل ما أملك ـ وأن عليّ أن أواصل محبته وأن أعتني به وأحميه. يجب أن نحب الحيوان الذي نحن لكي نستمرّ في كوننا بشراً.

22

ثمة معرفة أخرى بالكائن البشري في هذه الظروف. هناك الضباط الذين يعذّبون ويسكرون ويصرخون ويتعرّقون ويتّسخون بسبب وضع المساجين في البرميل وسحبهم منه. نتساءل: عندما يعودون إلى بيوتهم، ماذا يقولون لزوجاتهم ولخطيباتهم ولأولادهم ولأهلهم ولأصدقائهم؟ الجلاد مثيلنا، يتكلّم اللغة ذاتَها، وينتمي إلى المجتمع نفسه، ولديه القيم نفسها والأحكام المسبقة التي لدينا. تُرى من أين يخرج؟ وأين يؤهَّل شخص كهذا؟

كذلك هناك أيضاً الجندي الذي يطيع الأوامر، مهما كانت، فهذا لا يهمّه. الجندي غير مسؤول، إن رؤساءه هم الذي يرغمونه على التحوّل إلى جلاد. ولكننا نكتشف فجأة أن هذا الجندي يقوم بأشياء لم يؤمر بالقيام بها. السجين المكَوجَل، يجب أن يُقاد في أية لحظة، لذا يتصرّف الجندي بحيث أن السجين يرتطم بالجدار. وبما أن السجين لا يستطيع أن يمشي حتى تلمّساً لأنه مقيّد اليدين خلف ظهره، فالضربة تكون على الجبين أو على الوجه. الضربة ليست خطرة، لكن تأثير المفاجأة مؤلم أكثر مما يجب. ويقول الجندي:

"آه، عفواً"!

ونحن نعرف أنه يفعل ذلك لأن هناك جندياً آخر يراه، فيضحك الاثنان.

إننا نتساءل لماذا يقوم الجندي بأشياء لم يأمره بها أحد، وهي ليست تعذيباً بقصد الحصول على معلومات، بل هي مجرّد خبثٍ بلا سبب وبلا هدف! إن الجندي لا يعرف السجين الذي يقوده ولا اسمَه، بل إنه لا يعرف إن كان مسجوناً خطأً، وأنه قد يُطلق سراحه بعد أسبوع، ورغم ذلك يصدمه بالجدار، أو يضربه لمجرّد التسلية. كما تعلّمنا، وكما اقتنعنا، ودافعنا في معظم الأحيان: الناس جميعاً سواسية، فإننا نتساءل كيف لهذا الكائن البشري، الجندي، أن يتصرّف هكذا ليجعل السجين الأعزل يصطدم بالجدار!

إنها معرفة جديدة: الاشمئزاز الذي يثيره جسمك، والضابط الذي يعذّب وهو يؤكّد أنه عادل، والجندي الذي يتسلّى بجعل السجين يصدم الجدار بوجهه. هذا هو أيضاً: الكائن البشري.

23

لا أريـد أن ألعــب لعبة الأبرياء، لعبة من لا يفهم ومن لم يفهم العـنف قـطّ. لقد انتميتُ في الماضي إلى ذاك العالم. كنتُ واحداً من آلاف الـشبّان الأمريكيين اللاتينيين الذين آمنوا بأن الجوع والبؤس والاسـتغلال ومـوت الأطفـال الـذي كان يمكن تجنّبه، كل ذلك لا يمكـن استئـصاله إلا بعنف آخر. لم أعد أومن بذلك، ولكن هذا لا يعطـيني الحـق في التنكـر للماضي، وعلى الأقل لماضيّ أنا، ماضيّ الذي أنا المسؤول الوحيد عنه.

في هـذه اللحظـة حـيث لا أستطيع القـيام بشيء سوى محاولة الفـرار من التعذيب بصورة كريمة إلى أقصى ما يمكن، لستُ مؤهّلاً للتفكير في البعيد.

ولكــن بعـد ثلاثين عاماً لا يقوم موقفي أبداً على النظر إلى مكان آخـر، ولعـب دور الأنقـياء، دور من لم يكن له علاقة بالعنف. لن أغمـض عـينيَّ لكي أنكر العنف القديم الذي شاركتُ فيه، ولا لئلا أرى العنف الجديد. ما أزال أومن أن هناك لحظات يحقّ لنا فيـها المقاومة والتمرّد بعنف على العنف والبؤس ونقص الحرية.

حتى إن حدث لي أن شككتُ، فلن أكفّ أبداً عن الإيمان بالكائن البشري، وبمظهره المضيء القادر على القيام بأعمال التضامن والتضحية بلا حدود. ولكنني أعرف أيضاً أن الكائن البشري حيوان قادر على اقتراف الشر المطلق، وعلى إغاظة الآخرين من باب التسلّي، وجعله يموت تحت التعذيب. قبل أن أُعتقل، كنتُ أجهل أن هذا الانحدار إلى الهاوية وهذا الانحطاط الذي لانهاية له ممكنٌ. النظر إلى المرآة مرعب: هذا ما تعلّمته في هذه الزنزانات.

24

كذلك لدي الوقت لأدع نفسي أذهب إلى الذكريات، وإلى ما عشتُه، إلى اللحظات الجميلة مع أبويّ وأختي وأصدقائي. أنا لا أعي أني كنتُ أكثر من صبي صغير، وأني لم أعش بقدر ما كنتُ أظن. لقد ظلّت هذه الفكرة تراودني طوال سنوات. ما أشعر به الآن أن ذكرياتي قليلة، وأني أعود باستمرار إلى الذكريات نفسها، ليس لأنها جميلة فحسب، بل لأني لا أملك سواها. وعلى الرغم من سنواتي القصيرة يمكنني الآن أن أمتلك ذكريات أخرى، ولكني لم أستفد قدر المستطاع مما عشتُه حتى الآن.

الفكرة تطير، وأرسم مخطّطات، مخطّطات جميلة. إذا ما نلتُ حريتي غداً فسأعود إلى بيتي، وسأكرّس وقتي لأهلي لكي أبيّن لهم كم أحبّهم. أريد أن أفعل ما سأستطيع فعله ولم أفعله. سوف أنجز ما بدأتُه وتركته في منتصفه، وسأصلح الألم الذي سبّبتُه. أريد أن يكون لدي كتب، وأن أقرأ وأتعلّم. أعرف كل ما يمكن أن نتعلّمه، وأعرف أني لا أعرف شيئاً. أحب أن تمرّ هذه اللحظة لكي أبدأ من جديد وأدرس وأعرف. وعلى الخصوص أن أكتب. ولكن لكي أكتب يجب أن أقرأ كثيراً. حتى هذه الأسابيع

الأخيرة، كنتُ أظن أني ذات يوم سيكون لدي الوقت للقراءة، وأني بعد ذلك سأنتقل إلى الكتابة. عمَّ سأكتب؟ لا أعرف، وليس لدي أية فكرة. إن ذلك أقل من مشروع، إنه وهم.

ربما يكفيني ما هو أقل من ذلك بكثير. قد يكفيني أن أمشي في الشارع. وإن استطعتُ فسأنظر بطريقة أخرى إلى المنظر والناس والأماكن. لن أمرّ راكضاً دون أن أنتبه. بل سوف أنتبه إلى التفاصيل. على الرغم من أني أعرف المدينة جيداً، أعرف أيضاً أن فيها أماكن لم أذهب إليها قط، وأني أشعر الآن بفضول لمعرفتها.

وضع التعذيب هذا عابر. وسأعود إلى حياتي العادية فيما بعد. ما هي "حياتي" العادية؟ لا أعرف. ولا أطرح السؤال على نفسي، ولا أستطيع أن أطرحه. ولكن لا يخطر ببالي أن التعذيب والسجن سيدومان إلى الأبد، وأني سأكتب عن هذا كلّه يوماً، سأكتب عن هذه المأساة. سوف يستعصي علي تخيّل حياتي دون ما أعيشه الآن، دون الثلاثة عشر عاماً التي سأعيشها. لا يخطر ببالي وسوف ينتهي بي الأمر بأن أقول لنفسي، ليس مرةً واحدة، بل في معظم الأحيان، وبقناعة راسخة تتجاوز الأدب والفنَّ الماهر نوعاً ما والقائم على صفّ الكلمات، أنه لو أن حياةً أخرى كانت ممكنةً بالنسبة إليّ لما كنتُ سأختارها.

يمكنني أن أسافر أيضاً، وأن أعرف بلداناً أخرى وأناساً آخرين، وأن أتابع دروسي في اللغة. ها أنا في الهذيان، في السفر إلى اللامكان، ممدَّدٌ على فراشي. وأنا مدركٌ أني أهذي، ولكني لا أريد أن أكفّ عن الهذيان. لا أريد أن أعود إلى الزنزانة، إلى هذه

الثكنة، إلى الألم الذي يعتصرني لمعرفتي أن أسرتي تتعذّب بسببي، وأن عمري ثلاثٌ وعشرون سنة، وأني جاهل، حيوان مسكين لا يعمل، ولا يدرس ولا يتطوّر. إنني أحاول أن أواصل أحلام يقظتي، وسفري، وطيراني، وألا أكون أنا ولو للحظة، وأن أعتقد أن كل شيء جميل، ولطيف، وأني في بيتي، جالس بين كتبي، ومستغرق في الدراسة والكتابة.

25

عندما يكون لدى الضبّاط لحظة فراغ، يخصّصونها لتجديد نشاطهم وللدفاع عنه.

إنهم ليسوا محترفي تعذيب، بل هم أشخاص مثلهم مثل الآخرين: آباء وأخوة وأبناء.

ولا ينكرون أن هناك لحظات بؤس وظلم، وأنهم سيسوّون ذلك عندما يأتي الوقت المناسب.

المسؤولون عن هذا كله هم رجال السياسة في البلاد، وكلهم كذّابون ولصوص وفاسدون.

هو ونحن، ضحايا المنظومة التي أوجدها السياسيون.

والتعذيب هو السلاح الوحيد الذي يملكونه للحصول على المعلومات.

في الحروب كلّها هناك تعذيب، إلخ.

فيما بعد، وفي لحظات أخرى، وذات مساء، يقدّم الجلادون مظهراً غريباً: إنهم يحسدون السجناء، لأن الجلاد يعرف في قرارة نفسه، أن ما يفعله لن يكون أبداً، وعلى الإطلاق، أية كرامة ولا قيمة إنسانية ولا ثقافية ولا معنوية ولا أخلاقية. سيتمكّن من

الحصول على المعلومات التي يبحث عنها. وماذا بعد؟ يستطيع أن يعرف أن جميع رجال هذه البلاد وجميع نسائها يخافونه في الشارع وفي المصانع وفي الجامعة. حتى في الليل عندما يأوون إلى بيوتهم وإلى فراشهم. سوف يخافون من الجلاد. وماذا بعد؟ هل سيشعر الجلاد بالفخر من هذا كله؟ أبداً. وإلى أبد الآبدين. ولا حتى بعد ألف عام. ولن يخاطر بأن يحكي لأبنائه بفخر:

"كان هناك رجل، امرأة، لديهما معلومات ولم يكونا يريدان أن يعطياني إياها. وكانا مُكوجَلين ومقيَّدين من خلف ظهريهما، وكانا يقاومان. ولكني أوصلتهما إلى الحد الأقصى، وسحقتهما، وأهلكتُهما. وأريتهما أنهما ليسا إلا قمامة. جعلتهما يعرفان الموت تحت الماء، مرةً، غالباً، وجعلتُهما يعطيانني المعلومات".

26

الجلاد في هذه اللحظات، في أثناء هذه الليالي، ثملٌ بعض الشيء، يتكلّم، ويبيّن مظهراً آخر من حَسَده، من القيمة القليلة التي يمتلكها من خلال عينيه. إنه يحسد السجين على أفكاره وعلاقاته والتزامه السياسي. يغبطه على معارفه وثقافته والكتب التي قرأها، يحسد زوجته التي هي سجينة أيضاً، أو تعمل في الخفاء.

الحسد والحقد ليسا الشعورين الوحيدين اللذين يحرّكان الجلاد، بل هناك الأوامر أيضاً، واحترام التراتبية العسكرية، وتأهيله، والدولة والمصالح الاقتصادية لأشخاص آخرين. ولكن هنا أيضاً، في الحسد والحقد، وفي الرغبة، في أن يبيّن للسجين أنه لا يساوي شيئاً، ولأن الجلاد لا يستطيع إشباع رغبته، فإنه يجد أسباباً لإهانة ضحيته. هو لا يقول ذلك ولكن المعذَّب يدركه، ويشعر به على جلده.

في الليل نسمع الجنود يعلقّون على النساء المعتقلات في الثكنة نفسها. إنهن جميلات، ملفوفات القوام جيداً، لقد رأوهن نصف عاريات في المرحاض، ورأوا سيقانهن أو نهودهن في أثناء

التعذيب. وهذا تنويع من حَسد الضباط، لكنه أكثر فظاظة، وأكثر قذارة. ولكن يمكن أن يقول الضباط الكلام نفسه عن النساء المعتقلات على الرغم من أنهم لا يجرؤون على ذلك، فقد تفرّ منهم بعض الكلمات أحياناً، ويقولون بعض التعليقات. بل هناك من يحاول أن يكون وحيداً مع سجينة، وأن يقول لها إنها جميلة، وإنها تعجبه، وإنه يحب أن ينام معها، وإن قبلت فإنهم سيمنعون عنها المعاملة السيئة، أو سيحصلون لها على نقلٍ إلى مكان أفضل.

على أية حال، يحاول الضباط أن يبيّنوا للسجناء "المهمّين" بأن لهم آراءهم السياسية الخاصة بهم، وأنهم سيكونون جميعاً رجال دولة. جلادون ولكنهم شرفاء. عنيفون ولكنهم مثقّفون. أجلاف ولكنهم منشّأون تنشئةً صالحة.

27

كانت فكرةُ الموت بوصفه حلاً لوضعنا الذي لا يُطاق، دائمةً. فكرتُ بمَخرَج: بما أنني، لسوء الحظ، لن أموت بنوبةٍ قلبية في أثناء التعذيب، وبما أنهم لن يدَعوني أغرق في البرميل، يمكنني أن أحاول الهرب وقتلَ نفسي. إنني أفكّر بذلك منذ ثلاثة أيام، وقد عزمتُ عليه، وسأنفّذه.

في أثناء الجلسة القادمة سأدع نفسي أغوص مرةً أو مرتين في البرميل، وسأُريهم أنهم يستطيعون أن يأخذوا مني معلومات بالتعذيب، وليس لأني الآن مستعدّ للتعاون معهم.

عندما سيُخرجونني من البرميل، سوف أقترح عليهم أن أسلّمهم مقاوماً، وسأدّلهم على المكان: شارع مزدحم جداً بالمارة، وسأحدّد الساعة.

من هو، عميلي، وما اسمه؟

سأقول لهم إن الاتصال متاح ولكني لا أعرف من سيكون هناك. على أية حال إنه شخص لا أعرفه.

وكيف شكله؟

قلتُ لهم للتو إني لا أعرف، ولكني أعرف أني أعرف الرفيق أو الرفيقة الذي سيأتي إلى الميعاد.

لا يبدو ذلك محبوكاً جيداً. ولكن هذا كل ما استطعتُ فعله، وكل ما تفتّق عنه عقلي.

لن أقول لهم إنهم إذا اصطحبوني سأدلّهم عليه، وإن بوسعهم القبض عليه، فقد يشكّون في أنني أريد أن أهرب. بل يجب أن يقترحوا هم ذلك. وحتى هكذا، يجب أن أبدي بعضَ المعاندة.

سوف يكفّون عن تعذيبي، وهذا من حيث المبدأ أفضل بكثير من الوضع السابق. ولكني أعرف أنهم سيتأكّدون من أن ليس لدي أي عميل في ذلك الشارع، في تلك الساعة، وستكون النتيجة كارثيةً عليّ.

سيعيدونني إلى زنزانتي.

وبعد لحظات سيصعد النقيب المسؤول عني، وهو محبط قليلاً، أو سيتظاهر بذلك، لأني لم أعطه هذه المعلومة من قبل.

ثمة شيء: هل أنا واثق من أن هذا العميل موجود، ومن أني سأجعلهم يذهبون إلى هناك من أجل لا شيء؟

نعم، موجود، طبعاً موجود.

يجب أن أتنبّه جيداً. إنه يثق بي كما يجب أن أعرف. ولكن إذا لم يكن ذلك صحيحاً، فسأفقد الثقة التي منحني إياها.

لا، هذا صحيح، إني أقسم لك.

ثم يأتي السؤال الذي أنتظره:

هل أنا مستعد لأخذهم إلى الموعد وأن أحدّد لهم الرفيق أو الرفيقة التي ستأتي؟

صمت. أتردّد قليلاً.

فيقول المسؤول: إذن هذا غير صحيح.

تلك هي اللحظة التي أنتظرها. سأقول له متردّداً إني مستعدّ للذهاب معه.

ويذهب النقيب.

الأسوأ هو ما سيأتي. يجب أن أعدّ نفسي للذهاب إلى ذلك الشارع وأن أجد حرية حركة كافية لكي أركض، وأن يطلقوا النار ويقتلوني.

وبدأت أتوهّم أني أجري، أجري، أجري، وهم لا يستطيعون اللحاق بي. لقد فكرتُ سابقاً إلى أين سأذهب. إلى بيت إحدى الصديقات، وهي امرأة مسنّة، أو إلى أحد أصدقائي. حاولتُ أن أنسى أرقام الهواتف كلها، لكني حفرتُ في رأسي رقمَ هذه المرأة. ولكن إذا نسيتُه، فسأجد طريقة لتركيبه. إنه مكون من ستة أعداد بسيطة. الأول والثالث والخامس من مضاعفات العدد اثنين. والثاني والرابع والسادس، عدد واحد: تسعة.

الساعات تمر والأيام تمر، ولم يأخذوني إلى الموعد. ولن أتمكّن من أن أقتل نفسي.

28

ذاكرة الأذن مدهشة، فطوال شتاء عام 1972، مر بالثكنة مئات السجناء، وعُذّب الجميع. اعتُقلت امرأة قليلة الالتزام على ما يبدو، فهي لم تكن تُعَذَّب إلا عندما يبقى مع الضبّاط قليلٌ من الوقت. وذات ليلة هادئة، بدأت تُسمع صرخاتها في هدأة الليل. كان صوتها قوياً، فراحت صرخاتُها تدوّي في قاعة التعذيب وتصعد الأدراج، وتخترق الجدران وتمزّق أغشية طبل السجناء. كانت هذه المرأة تؤخذ مرةً أو مرتين أسبوعياً لتعذَّب.

بما أن علاقةً من الارتباط تنشأ بين السجين وجلاده، وكذلك علاقة من التعارف المتبادل وحتى من الثقة، فإن السجين الموجود هنا في زنزانته منذ شهرين يسمح لنفسه بإعطاء بعض التعليقات خارج ما يربطه بجلاده: وهي المعلومات التي يمتلكها ويريد الآخر أن يأخذها، لكنه لا يعطيه إياها.

تلك المرأة التي تصرخ كما لم أعتقد أن امرأةً تستطيع أن تصرخ، والتي يبدو أنها لا تملك كثيراً من المعلومات، تجعل سجينين أو ثلاثة، وأنا منهم، يسأل كل منا المسؤول الخاص به:

لماذا لا يُطلق سراح هذه المرأة، فمن المؤكّد أنها لا تمتلك معلومات، وربما هي مريضة في رأسها.

ويجيبني المسؤول أن لا، وأن كلامي غير صحيح، وأنه يعرف أنها تمتلك معلومات ولكنها تتظاهر بأنها مجنونة.

بعد عدة أيام اختفى صراخ المرأة. ربما أطلقوا سراحها أو نقلوها، أو ربما ماتت تحت التعذيب. لم أرَها في حياتي، ولم أعرف اسمَها، ولا سنّها. ولكن دون أن أدري، بقيت رنّة صوتها تتردّد في رأسي، إلى الأبد على ما أعتقد. وسمّيناها: "المجنونة أم الكلاب"، وبعد عدة سنوات، وبينما كنا نجلس أحدنا مقابل الآخر، في حفل عشاء في ستوكهولم، عرفتُها من صوتها فقط.

29

ربما كوَّن الجلاد عن الكائن البشري مفهوماً هو الوحيد القادر على بلوغه. لا بدّ أن التسبّب بالألم تجربةٌ فريدة. ولا بدّ أن رؤية رجل، أو امرأة، كان يعيش حياةً عادية لحظةَ اعتقاله، ثم يتحوّل إلى خرقة متألّمة ولحم مُهان، يصرخ ويستغيث ويتخبّط، يجب أن تمنح الجلاد نظرةً عن الكائن البشري لا تستطيع الحياة في المجتمع أن تمنحه إياها.

من المستحيل تماماً ألا يفكّر الجلاد بتجاربه في أثناء التعذيب أو بعده، حتى لو كان ذلك بعد سنوات. هو لا يدين نفسه. ربما يسوّغ لنفسه ما قام به، وربما كان مقتنعاً أنه مستعدّ للقيام بذلك من جديد إذا اضطرّه الأمر. لكن ما لا يستطيعه هو عدم التفكير.

في اللحظة التي يجب فيها اتّخاذ القرارات وإعداد الاعتقالات والتعذيب، قد لا يطرح الجلاد على نفسه هذه الأسئلة، ولا يكلّف نفسَه عناء الإجابة عن سبب ما يقوم به ولا عن فائدته. ولكن لا بدّ، ذات يوم، من أن يفكّر حتى النهاية، وأن يصل إلى حيث لا مكان للأعذار الأيديولوجية ولا السياسية ولا المهنية، ولا شيء. لا شيء إلا هو، وحيداً أمام ضميره. ترى ماذا سيعطي الجلاد من جواب، ذات يوم؟

30

أعتقد أن كل جلاد يطوّر مهارتَه وتقنياته. ويتعلّم كيفية استخدام الوسائل المشتركة: الماء، والكهرباء والمطرقة، ويتعلّم كيفية استخدام أية أداة على المادة، التي هي الجسم البشري المعذَّب، في نظره.

اختصاص المسؤول عني هو البرميل. أعتقد أنه لم يضربني، لستُ متأكداً من ذلك، ولكني أعرف أنه لم يفعل ذلك قطّ بحيث أستطيع أن أحدّده. ربما لم يستطع الامتناع عن ضربي في أثناء جلسات التعذيب، ولا عن لكمي، أو رفسي. ولكن في تلك الحالات لا أعرف من يفعل ماذا. أنا متأكّد من أن اختصاصه هو البرميل. وبعد أشهر وسنوات علمتُ أن كل مركز اعتقال متخصّص بنوع من أنواع التعذيب.

حيث كنتُ لا يوجد تعذيب بالكهرباء، بل البرميل هو المسيطر. وأحياناً، عندما كان أحد الضباط يريد أن يخيفني، كان يقول إنه سيأتي بالتيار الكهربائي. لكن الكهرباء لم تأتِ أبداً، ما يجعلني لا أستطيع أن أعرف إن كان ذلك أفضل من البرميل أم أسوأ منه.

ولكن ها قد أصبح المرء قادراً على إضافة أداة مكمّلة للبرميل. ربما لأن البرميل صعب، يلزمه قوة، وهو يبلل أرض القاعة، كما يبلّل الضباط أنفسهم.

ذات ليلة لم يبدأ التعذيب في الوقت المحدّد. كان الضبّاط في الأسفل، وكنا نسمعهم، ولكن لا يوجد تعذيب. يجب الانتظار لمعرفة ما يدبّرون. كان من المستحيل النوم هكذا، مع هذا الشعور بالانتظار.

فجأةً، فُتح باب قاعة التعذيب، وسُمع صوتٌ يقول:

"سآتيكم به".

وصعد شخصان الدرج راكضين، دخلا زنزانتي، أنهضاني، وأوقفاني لصق الجدار وهما يصرخان ثم قيّداني من خلف ظهري، وأخذا يدفعانني في الممر، وقذفاني إلى قفص الدرج، تعثّرتُ فأنهضاني.

كان ذلك تمهيداً. لم يحدث شيءٌ بعد. لكمات وصرخات وضربات خفيفة، كل ذلك كان محتمَلاً. ولكن يجب ألاّ تُبدي أن ذلك لا يهمّك، أو لا يؤلمك. يجب أن تُظهر لهم أنك خائف، في قمة خوفك. وإلا فإن عملية التليين ستستمر، وهم يفضّلون الوصول بالقوة إلى ما يهم حقاً، إلى التعذيب الحقيقي.

31

ما إن صرتُ في الأسفل حتى أبلغوني أنني سوف أتعلّم هذه المرة ما هو مفيد.

كان نقيبي موجوداً، وسمعتُه، ولكن لم يكن هو من يدير العملية.

لم يكن هناك من أسئلة، بل صرخات وإنذارات وتهديدات.

طلبوا مني أن أرفع قدمي اليمنى.

وضعتها على شيء تبدّى لي كدرجة سلّم.

وطلبوا مني أن أرفع القدم الأخرى.

بما أني لم أعرف، ولم أفهم ما يريدون مني، بما أني كنتُ أخرقَ، فقد كدتُ أن أسقط، فساعدوني.

الساق الأخرى كما لو أني على سرج.

ضحك أحدهم وقال: "ليس هكذا يُمتطى الحصان. يجب أن تبدأ بالساق اليسرى".

كان هناك من هو أخرق مثلي، وهم لا يعرفون كيف يعلّمونني على ما يريدون أن أفعله. انتهى بهم الأمر أن تعبوا، ثم رفعوني.

جلستُ فأحسستُ بدرجة سلم ناعمة جيداً بين ساقيّ، على الخصيتين وعلى العصعص. وسرعان ما انتقلتُ إلى جانبي، إلى إليتي، فكان أقل ألماً. عند ذلك قالوا لي بأن أركب الدرجة:

"على المؤخرة، على المؤخرة".

تحركتُ وأطعتُ أوامرهم. لكن جسمي انزلق إلى الجهة الأخرى. وناولني أحدهم ضربة هراوة على قدمي اليمنى، فتألّمت. نهضتُ ثانيةً وركبتُ الحاجز، وعندما انزلقتُ إلى الجانب الآخر ضربني بالهراوة على فخذي اليسرى. وعلى عظم الساق. بذلتُ جهداً وجعلتُ الحاجز يتثبّت بين إليتيّ، ولم أعد أتحرّك. ودون أن أريد أذلك، سعت قدماي إلى الدرجات السفلية، ووجدتاها، واستندتا عليها ورفعتُ جسمي.

تلقّيتُ ضربتَيْ هراوة في آنٍ واحد على قدمي وعلى كاحلي. يجب عليّ أن أبقى مستنداً على العارضة الوسطية فقط، تلك التي بين ساقيّ.

هذه الوضعية تسمىّ وضعية الحامل. لم أكن أعرفها، بل هم دشّنوها معي وأخذوا يتدرّبون على استخدامها.

الجسم لا يبقى مستنداً على العصعص. فالجالس يهتز ويبحث عن شيء يستند إليه لئلا يسقط. وبما أن يديّ كانتا مقيَّدتين خلف ظهري، فقد جلستُ على الدرجة التي كانت بين ساقيّ، وكنتُ أرفع نفسي قليلاً لتقليل الألم.

بدؤوا يحرّكون الحامل، وكأنه حصان خشبي، إلى الأمام والخلف فجعلني الألم أصرخ.

هذا الإجراء الجديد جعلهم يضحكون، وأخذوا يصرخون بي أن أتكلّم، وأن أقول كل ما يجب أن أقوله.

فرددتُ بمزيدٍ من الصراخ.

لم أشأ أن أتكلّم، فقد كنتُ أعرف أنهم لا يجيدون استخدام الحامل، وأنهم يجرّبونه، وأني أريد أن أبيّن لهم أن هذا لا يُطاق، وأنه مؤلم إلى درجة أني لا أريد الكلام ولا أستطيعه.

صرختُ صرخةً أقوى.

كانت هذه الصرخة عاديةً، ولم تكن ذلك العواء الذي أطلقه عندما يُخرجونني من البرميل. صرختُ لأني أتألّم، وكذلك لكي أذهلهم وأمنعهم من طرح أسئلةٍ عليّ.

توقّفوا عن تحريك الحامل، وواصلتُ صراخي، فالحامل مؤلم حتى لو كان ثابتاً.

قالوا لي إنهم سيبقونني هنا طوال الليل، حتى أقرّر أن أتكلّم.

لم أعرف كم مضى من الوقت، عشر دقائق، ربع ساعة. وران صمتٌ، وكأني بمفردي، ولكنني أعرف أن أحدهم ينظر إليّ. ولكي أريح نفسي، ملتُ جانباً، ورفعتُ جسمي عن الحامل.

وسرعان ما سمعتُ صوتاً يأمرني بأن أجلس كما يجب.

فعلتُ ما أُمرتُ به فملت إلى الجانب الآخر، وسرعان ما بادرني الصوت وضربةٌ على فخذي.

ركّزتُ لئلا أتألّم، وتركتُ الحامل ينغرس في جسمي بالقدر الذي يتحمّله هذا. كنتُ أعرف أني أتألّم، وأني سأتألّم كثيراً فيما بعد. أما الآن، فكانت تلك المنطقة كأنها مخدَّرة. ألم قوي جداً

يخدّر، ولا أعود أحسّ بشيء. ومع ذلك، كان يجب أن أُظهر أني أتـألّم، وأن الحامـل أسـوأ من البرميل، الأمر الذي لم يكن كذلك، ويجـب أن أبـيّن لهـم، أنـي لا أريـد أن أتكلـم على الرغم من هذا الألم المـبرح كلّـه. وإذا كـنتُ لا أتكلّم على الحامل، فكيف لي أن أتكلّم في البرميل؟

32

لا أعـرف كم مضى من الوقت. ساعة، ساعتان. دخل أناس إلى القاعة، وسأل أحدُهم:

"وماذا بعد"؟

لم أسمـع جـواباً. افترضـتُ أن الـضبّاط تركوا واحداً أو اثنين من الجنود المناوبين وذهبوا ليستريحوا وينتظروا نتائج الوسيلة الجديدة.

تخيّلتُ أن الجندي رفع كتفيه وقال برأسه: "لا، لا شيء".

سمعتُ صوت قائد الثكنة، وهو مقدّم يتكلّم أحياناً ويعطي أوامر، ويخطب في المساجين، ولديه نوبات عصبية في أثناء التعذيب.

بحـسب ما قال لي أحد الضباط، فإن قائد الثكنة لا يتحمّل ما يحـدث هـنا، عنده، ولا ما يفعله مرؤوسوه، وإنه يتناول المهدّئات لكي يتحمّله.

الآن، ثمة تبادل في وجهات النظر.

تمكـنتُ مـن أن أفهـم أن أحـدهم اقـترح الحامـل، وأنـه رآه يُـستخدَم في مكـان آخـر حيث كان يعطي نتائج جيدة. ولكن أهل هـذه الثكـنة لـديهم اختـصاصهم: الـبرميل، ولا يؤمـنون بوسـيلةٍ أخرى، أو لا يُحسنون استعمالها.

سمعتُ ثلاثَ حجج ضد الحامل. قالت الأولى:

"هذه الأداة لا تنفع، إذ يجب أن نترك الشخص عليها طوال الليل، ثم ننتظر إن كان يريد أن يقول شيئاً ما".

وقالت حجة أخرى:

"هذا الحامل لا يفعل لهم شيئاً، يستطيعون أن يتحمّلوا الجلوس فوقه لمدة أسابيع".

وكانت الحجة الثالثة عملية، إذ أعلنت أن الحامل قاب قوسين أو أدنى من الانكسار، وأن عليهم أن يمضوا وقتَهم في إصلاحه.

عندئذٍ قال القائد، المقدم:

"خذوه"!

سحبوني عن الحامل فأحسستُ بألم فظيع جعلني لا أستطيع المشي، فساعدوني على صعود الدرج.

وعندما أصبحتُ في الأعلى، أمر نقيبي أن أقيّد من الأمام.

وهذا يعني أو قد يعني أنه لم يكن مقتنعاً بفضائل الحامل، أو أنه لم يجد من المستحسن أن يُبدأ به معي. ومهما يكن من أمر، فإن الحياة مع قيود من الأمام تتحسّن بطريقةٍ غير معقولة.

وصلتُ إلى زنزانتي ودفعوني إلى فراشي. تمدّدتُ تلمّساً، وتكوّرتُ على نفسي. وضعتُ يدي بين ساقيّ، تلمّستُ خصيتيَّ وشرجي، وعصعصي، بحثتُ عن الحرارة، أردتُ الحرارة، لكي تنغلق عظامي التي انفتحت.

ظللتُ أتألّم عدة أسابيع، وكنتُ أمشي متباعد الساقين. ولم يظهر الحامل بعدها.

33

جلبوا لي طعامي. كنتُ جالساً على فراشي، أخذتُ آكل والكاجول مرفوع قليلاً. دخل المسؤول عني فوضعتُ الطبق أرضاً ونهضت.

فراش وغطاء: هذا كل ما أملكه، مع سطل للماء في الزاوية. سألني المسؤول عما يفعله هذا السطل هنا. فقلتُ له إنه من أجل الغسيل. لم يسألني كيف حصلتُ على هذه الرفاهية. ما من أحد لديه سطل ماء في زنزانته. تهاون معي نقيبي، ولم يطلب رفع السطل على الرغم من أنه يعلم أنه غير طبيعي.

قال لي إنه مر من أمام بيت أهلي لكي يعرف أين يعيشون وكيف. لم أصدّق أنه ذهب إليهم مدفوعاً بفضول مجرَّد. ولم يهمّني إن كان رآهم أم لا. سوف يكذب عليّ، ومع ذلك سألتُه: كيف حال أسرتي.

الجميع بخير، ولكنه لا يستطيع أن يقول أكثر من ذلك.

استفاد من الفرصة ليسألني عن أمور لا يعرف إن كنت أعرفها، ولكنه بحاجة إليها لأنه كُلّف بالتحقيق فيها.

يعرف أني لن أقول له شيئاً حتى لو كنتُ أعرف، على الأقل ليس هكذا، مجاناً بلا تعذيب.

لم يكن ذلك استجواباً، بل كان يعطي تعليقاً على العمل الذي كُلّف به، كما لو أننا كنا أصدقاءً أو زملاء عمل أو جيراناً.

عندما ذهب نصحني، وحذّرني: إن كنتُ أعرف ما يسألني عنه وكتمته عنه، فسوف ينزعج، وسوف يضطرّ إلى سحب ثقته مني.

لقد كنتُ أعرف تماماً ما يطلبه. كنتُ أود أن أعرف إلى أية درجة هو مطلع على الأمور التي يحقّق فيها. ولكنه لم يعطني معلومات أخرى.

سطلي يشغلني كثيراً. شعرتُ بفخر عظيم لامتلاكه. ذات ليلة، وبعد جلسة في البرميل، أشفق على حالي أحد الجنود، وسمح لي أن أبول، وأعطاني سيجارة. استفدتُ من ذلك وطلبتُ منه أن يعطيني ماء من سطل موجود في المرحاض، لكي أغتسل قليلاً. أعطاني ما أردتُ دون أن أضطر لرجائه كثيراً. على الرغم من أني كنتُ مبلّلاً تماماً، كان عليه أن يُدرك أن أقل ما يمكن أن أحتاج إليه في تلك اللحظة هو الماء.

34

خلال ليال عديدة أخذوا يعذّبوننا بعنف شديد. كنا نسمع أنين المعذَّبين وصرخات الضباط. كان الجنود في الممرات متوتّرين، لا يتكلّمون ولا يستمعون إلى المذياع. وأنا كنتُ على فراشي، لا أنام.

بعد لحظة صمت سمعتُ صوتاً على الدرج يلفظ اسمي الحركي.

"أنزلوه"!

نهضتُ مباشرةً قبل أن يُنهضوني بالضرب. فتح الجنود الباب وأنزلوني والأصفاد من الأمام.

دخلتُ فرأيتُ قاعة التعذيب مليئة. كان الصمتُ مخيماً، وقائد الثكنة يريد أن يتكلّم، هذا المقدّم ذو الخطابات الطنّانة والنوبات العصبية، وذو المهدّئات.

في الجو شيء لا أستطيع تحديده. كنتُ أصفه بالرسمي، مع أن هذه ليست الكلمة المناسبة.

المقدم لا يعرف كيف يبدأ. أخذ يتأتئ. اقترب مني، أحسستُ بحرارة جسمه قرب جسمي. لم أكن أستطيع تجنّب خطابه، على الأقل هذه المرة.

قال ما معناه: لقد لعبوا لعبة مكشوفة معي، ولقد كانوا قساة ولكن شرفاء ومستقيمين، وبالمقابل، لقد كنتُ معهم كاذباً وابن قحبة، وأني كذبتُ عليهم طوال الوقت. والآن، قضي الأمر وسيكون مصيري رهيباً، وسوف أرى.

لم أكن أعرف ما يعرفه. ولكني تخيّلتُ الأسوأ، وقد يكون ذلك حماقة أيضاً. بعد أسابيع من الاستجواب، تعلّمتُ أن كل شيء يمكن أن يحدث. وما هو مهم بالنسبة إليهم قد لا يكون كذلك على الإطلاق بالنسبة إلي. والعكس صحيح أحياناً.

أنهى المقدم خطابه وهو يتأنئ: لقد كنتُ قذارة لأني كذبتُ عليهم، بينما هم كانوا يتصرّفون كرجالٍ كلامهم كلام شرف.

لا أعرف إن كنتُ محقّاً، ولكن دون أن أرى القائد، وبمجرّد سماع صوته، طوال هذه الأسابيع، تكونت لدي فكرة أنه سخيف، وأنه أوج الشرور في مملكة التعذيب هذه، كما تكوّنت لدي فكرة أخرى هي أنه بالإضافة إلى سخافته فهو جبان. وأينما عاش، إن عاش أيضاً، فإنه سيبقى دائماً هكذا: مدّعياً وسخيفاً ورعديداً.

لا تؤثّر بي شتائم المقدم أو أي أحد آخر. سأذهب مباشرة إلى كبد الموضوع، أنا أعرف هذا الشيء الجديد الذي يعرفونه عني.

شعرتُ أني موجود وسط دائرة من الضباط، أو نصف دائرة. أحسستُ بحرارة الأجساد، وبرائحة العرق والتبغ التي كانت تفوح منهم.

لم أسمع نقيبي بعد، وهو مرجعي في كل شيء، ولكني أفترض أنه هنا لأني سمعتُ صوتَه وصراخه عندما كنتُ في الأعلى. تأكّدتُ من وجوده عندما كلّمني.

كان إلى جانبي.

أراد أن أخلع حذائي.

الآن، عرفتُ ما عرفوه. هذا سخيف. إنهم يعرفون، ولكن على الرغم من كل شيء تظاهرتُ بأنهم لم يتنبّهوا لذلك.

35

انحنيتُ، وبدأت بالقدم اليسرى. أضاف نقيبي أن عليَّ أن أخلع جوربي أيضاً.

خلعتُ فردة حذائي اليسرى وجوربي الأيسر. ثم الأيمنين.

وبعد أن انتهيتُ بقيتُ مقرفصاً لكي أخبئ ما لا أريدهم أن يروه.

أمروني أن أنهض، ثم أن ألتفت.

قال أحدهم إنه لا يرى شيئاً غير عادي، فانحنى عددٌ منهم من حولي، وقال لي أحدهم أن أرفع قدميَّ.

وأطعتهم، فرفعتُ اليسرى أولاً، ثم اليمنى.

"هنا".

وأحسستُ بالحذاء يسحق قدمي اليمنى. بدؤوا يضربونني، ويرفسونني بأقدامهم، قفزتُ وسقطتُ أرضاً وهم يضربونني.

"هنا" يعني أنهم رأوا جراحي. فمنذ سبعة أشهر تلقّيتُ رصاصةٌ في كل قدم، واستطعتُ أن أهرب على الرغم من كل شيء. وتمكّنتُ من أخذ العلاج في مشفى سرّي. أنتنَتْ قدمي اليمنى أولاً، ثم اليسرى، ثم اليمنى فيما بعد. خضعتُ لعمل جراحي

أربع مرات، وكانت الأخيرة قبل توقيفي بعدة أسابيع. عندما اعتُقلتُ كان جرحا قدمي اليمنى ما يزالان مفتوحين. جرح دخول الطلقة وجرح خروجها. لم يتنبّهوا إلى أني كنتُ أعرج لأني كنتُ حريصاً على ألا يروا ذلك ويقوموا بطرح الأسئلة عليّ. ولم أكن أعاني كثيراً في ذلك: فهم لم يروني قطّ أمشي بصورة طبيعية، إذ كنتُ دائماً مكوجلاً ومقيَّداً ومدفوعاً.

وبما أنهم لم يروني وأنا أمشي بصورة طبيعية، فقد كففتُ عن القلق بشأن عرَجي، وبالمقابل حرصتُ على ألا يُنتِن جرحي من جديد. بدأتُ بسرقة صابون وجدتُه في المرحاض، ثم حصلتُ على هذا السطل بفضل الجندي. وكل صباح، حوالي الساعة الخامسة أو السادسة، وعندما يكون الجميع مرهقين، ولا أحد يراقب الزنزانات، كنتُ أنهض وأغسل قدميّ، وأضغط على جراحي لكي تنزّ.

لقد وجدوا المستشفي الذي عولجتُ فيه. وحصلوا على العصا التي استعنتُ بها، وهي مصنوعة من نصاب مكنسة.

لم أكن حتى بحاجة إلى الاعتراف بأني كنتُ جريحاً، فقد رأوني.

أنا جريح ونقيبي محرَج.

36

أصعدوني، والغريب أنهم لم ينتقموا مني. جلستُ على فراشي، وأخذتُ أمسّد قدميّ. أصابعي تكاد تنفجر من فرط ما ديست بالأحذية. ولكني سرعان ما وجدتُ فائدةً في ذلك: ما دمتُ الآن لا أحتاج إلى إخفاء أني جريح، صار بوسعي أن أطلب عنايةً طبّية.

في اليوم التالي صعد نقيبي لرؤيتي. كان بادي الإحباط لأني لم أخبره عن جراحي.

أخذ يتكلّم بلا توقّف.

ولم أنبس بكلمة.

لو أني أخبرته عند اعتقالي لأمّن لي عناية طبية.

هل جراحي في طريقها السليم إلى الشفاء؟

نوعاً ما.

لاحظتُ أن جوابي لم يهمّه.

بل كان مهتماً في معرفة كيف تدبّرتُ أمري طوال هذه الأسابيع لئلا تُنْتِن قدمي.

الأمر سيان عندي الآن، وأومأتُ برأسي إلى سطل الماء.

صمت.

خشيتُ أن يأمر بأخذه، كان من الأفضل لي ألا أتكلّم.

آه، لهذا إذن؟ ثم رفس السطل.

كنتُ قد أخفيتُ الصابون، وضعتُه في قطعة بلاستيكية تحت الفراش.

ذهب، عاد، كان يبدو أنه يريد أن يقول لي شيئاً ما ولكن لا يعرف كيف يقوله. أو ربما لا يريد. ربما تأثّر بجراحي لأني فضّلتُ ألا أقول شيئاً وأن أتحمّل كل هذا بمفردي. لا أعرف. لا أستطيع أن أقرأ على وجهه، فأنا لا أرى. فعندما نتكلّم، أنظر من تحت الكاجول فأرى حذاءه. على أية حال أفضّل ألا أتساءل عما يحدث. أنا أيضاً أريد أن أقول له شيئاً ما، سأقول له الفكرة التي وافتني مساء أمس. عليّ أن أتحقّق أولاً مما إذا كان قد أُحبط فقط أم أنه غضب. ركّزتُ على هذه النقطة. كنتُ أجهل في أي موقف أنا بالنسبة إليه، لأن ما ألعبه هو مقلب. ليس مقلباً فحسب، بل هو خدعة بائسة، لكنها تهمّني، وإذا قلتها له فلكي أحصل على ما أريد، وليس لكي يرفضها.

هذه المرة ذهب مباشرة.

كان ما يزال في الممر عندما قرّرتُ فناديته.

عاد. ماذا هناك؟

"هل أستطيع أن أُعرَض على طبيبي"؟

صمت. فكر. سيفعل ما بوسعه.

مرت الأيام والطبيب لم يمر.

واصلتُ غسل قدمي، وعلى الرغم من أني لا أريد أن يروني، لم تعد مفاجأتي وأنا أغسله تشكّل خطورة من الآن فصاعداً.

37

ها قد مرت عدة أسابيع وهم يستجوبوننا عن فرانشيسكو. نحن سبعة في الزنزانة، وكلنا نعرف من هو فرانشيسكو. فرانشيسكو لقب، ولا أعرف إن كان أحدٌ هنا يعرف اسمه الحقيقي. ربما نعم، ولكني كنتُ لا أعرفه. كما إني لا أعرف أين هو الآن، ولا طريقة تحديد مكانه. وقد سبّب لي هذا بعض الهدوء: لن يتمكّنوا أبداً من إيجاده عن طريقي.

كانت تلك الليلة غريبة. لم يكن هناك تعذيب. كنا قد اعتدنا على مراقبة الزمن. لم نكن نعرف كم الساعة، ولكننا كنا نفكّر أنهم بدؤوا التعذيب. ربما يبدأونه بعد قليل، ويجب أن نستعد. مر الوقت ولم يأتِ التعذيب. هذا مقلق. فعندما يبدأ نسمع صراخ المعذَّبين وصراخ الضباط. هذا هو الوضع العادي. وعلى الرغم من الصرخات - إن كان هناك تعذيب، وإن كنا على فراشنا - فسينتهي بنا الأمر إلى أن ننام. وبالمقابل، الصمت مقدمة، شيء ما يُحضَّر، وهو غير جيد. وهنا، ما هو مختلف لا يمكن أن يكون جيداً.

استمرّ الصمتُ طوال الليل. وحدها السعالات أو أصوات الجنود المناوبين وهم يستمعون إلى المذياع، كانت تخيّم على المكان. ويمكن أن يعني هذا أنهم خرجوا من أجل عملية ضخمة، وأنهم أخذوا معهم كثيراً من الموظّفين. وقد يعني ذلك أشياء أخرى أيضاً: أن العقل مشغول بالاختراع، من أجل الانشغال وإيجاد جواب. وانتهى بي الأمر أن نمت.

عند الفجر دخل المسؤول عني إلى زنزانتي. أنهضني وأنزلني على الدرج، مكوجلاً، حتى الطابق الأرضي. كان كل شيء هادئاً. أدركتُ وأنا نازل أن عربةً تتأهب لتصفّ. من الهدوء الذي قادني به النقيب، ومن صوت محرّك السيارة، فهمتُ أنهم سينقلونني. ولكن كان هناك ثمة شيء غريب: كانت قيودي من الأمام ولم ينقلوها إلى خلف ظهري. ليس هناك من نقل والقيود من الأمام حتى لو كان ذلك داخل الثكنة. هل سيخرجونني لكي يقتلوني؟ هذا محتمل. أجهل إن كان قد حدث أن أخرجوا أحداً ما وقتلوه في مكانٍ ما، ولكني غالباً ما فكّرتُ أنهم سيخرجوننا ذات ليلة ويقتلوننا في إحدى الحفر.

لاحظتُ أن الفكرة لم تُخفني. ولم يكن ذلك من باب الشجاعة، بل من باب قلة الإحساس. عمري ثلاث وعشرون سنة، وأهلي سيتألّمون لفقد ابنهم. ثمة أشياء كثيرة أريد أن أتحدّث بها معهم، وهذه الأشياء هي التي اكتشفتها عند انتقالي من المراهقة إلى سن الرشد، ولم يأتِ الوقت المناسب لقولها لأهلي. وهناك أختي، الطفلة، والتي يجب عليها أن تتعلّم أموراً كثيرة.

أحب أن أتحدّث معها وأن أكون بجانبها وأن أراها تكبر. سأموت دون أن أراهم، وسيتألّمون بسببي، هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعلني حزيناً.

38

عندما وصلنا إلى أسفل الدرج، جعلني النقيب أجتاز المترين اللذين كانا يفصلاننا عن الباب. عندها توقفت نهائياً العربة التي كانت تتأهّب لتصفّ. ومن صوت محرّكها فهمتُ أنها ليست شاحنة، بل سيارة صغيرة.

شعرتُ أن أحداً ما قد فتح الباب الخلفي للعربة المقصودة، ما أكّد لي أنها شاحنة صغيرة. أجبرني النقيب على التقدّم فاصطدم عظم ساقي بواقية الصدمات. فهمتُ أنه كان يريدني أن أصعد فرفعتُ قدمي وأنا أخفض رأسي لئلا يرتطم بشيء. في تلك اللحظة رفع النقيب الكاجول عن وجهي: لم يكن يريدني أن أصعد، بل أن أنظر، وأن أرى.

على بعد خمسين سنتيمتراً مني رأيتُ وجهَ فرانشيسكو الذي كان جالساً على أرض الشاحنة الصغيرة. كان شاحباً جداً، وعيناه زرقاوان ـ خضراوان وعلى ظهره وذراعيه رُميتْ بطّانية.

لم أشأ أن يعرف النقيب إن كنتُ أعرف من هو موجود هنا. نظرتُ إلى عينيه محاولاً أن أخمّن شيئاً ما، وأن أقول له إني لا

أعرفه، وليس أني أجهل من هو فحسب، بل إني لا أعرف فرانشيسكو أصلاً.

كان ينظر إليّ، ولا يتكلّم، ولا يرفُّ أهدابَهُ، ولا يغمض عينيه. ولم يومئ إليّ أن أنتظر. قلتُ لنفسي إنه قد انهار تحت التعذيب، ولم يعد قادراً على فعل أي شيء. كل هذا مرّ خلال بضع ثوان.

سألني النقيب إن كنتُ أعرف هذا الرجل. فكرتُ إنه إذا لم يقل لهم فرانشيسكو من هو، وأنه تحمّل إلى هذه الدرجة، فليس لديّ الحق في الاعتراف دون تعذيب أن هذا هو الرجل الذي يبحثون عنه منذ عدة أسابيع. وشعرتُ أن عليَّ أن أتركهم يعذّبونني كي أعترف أن هذا هو فرانشيسكو، حتى لو تمكّنوا من معرفة ذلك.

خلال هذه الثواني القليلة، ومع نصف الجسم الموجود في الشاحنة، يجب على العقل أن يفكر ويجد الجواب. استجمعتُ بعض الشجاعة وقلتُ للنقيب إني لا أعرف هذا الرجل.

في تلك اللحظة تحرّك الجندي الجالس في المقعد الأمامي ولمس بمرفقه ظهر فرانشيسكو، فانزلق الجسم إلى جنب ورأيتُ دماً على رقبته آتياً من قفاه، وفهمتُ أن شحوب فرانشيسكو كان شحوب الموت.

"لا يهم، فنحن نعرف من هو، وأنت تعرف ذلك أيضاً، إنه فرانشيسكو".

غضب النقيب، ووضع يده على الكاجول من الخلف وأخذ يضغطه على وجهي ورقبتي، ثم أصعدني الدرج راكضاً. لم أعد أستطيع التنفس، وتعثّرتُ وسقطتُ، فرفعني النقيب من الكاجول، وكما لو أنه يخنقني، اختنقت. وعندما صرنا في الطابق الأول أمر الجنود أن يوقفوني أمام الجدار:

"لا ماء ولا مرحاض ولا شيء له حتى إشعار آخر، مفهوم"؟

"نعم يا سيدي النقيب".

39

فيما بعد، داخل زنزانتي، وحتى اليوم، بعد ما يقارب الثلاثين سنة، وأنا أتساءل في أية لحظة قلتُ للنقيب إني لا أعرف من هو ذاك الرجل الذي كان موجوداً أمامي. لا أعرف إن كنتُ قد أجبتُه قبل أو بعد أن عرفتُ أنه ميت. كنتُ أفضّل أن أكون قد قلتُ ذلك قبل أن أرى أنهم قتلوه. قبل، وليس بعد. إن كنتُ قد أجبتُه قبل، عندما كنتُ أظن أنه ما يزال حياً، فذلك كما لو أني قلتُ له:

"لن أسلّمك يا فرانشيسكو، على الأقل أعدكَ بأني لن أسلّمك مجاناً. سيكون ذلك تحت التعذيب. مهما حصل، سيكون ذلك تحت التعذيب".

ولكني لا أعرف في أية لحظة قلتُ ذلك. ولن أعرف ذلك أبداً.

40

ذات صباح أيقظونا قبل الأوان وقدموا لنا الفطور. أصلحوا من وضع كاجولاتنا، رمونا على أرض إحدى شاحنات الجيش وأخرجونا من الثكنة. رأينا بضع مركبات عسكرية خلفنا، وربما كان هناك سيارات أمامنا.

على الرغم من أن العسكر يظنون أني لا أعرف أين أنا عندما اعتقلوني، فمن أرض الشاحنة، استطعتُ أن أتبع عقلياً الشوارع التي مرّرونا فيها، وأعرف في أية ثكنة كنا. والآن، وأنا مكوجل على أرض الشاحنة، تبع عقلي الطريق. في بعض اللحظات كنتُ أضيع ولا أدري أين كنا نمرّ. بعد قليل نزلت الشاحنة منحدراً قاسياً. وعندما توقّفت، وأنزلونا، وجدنا أنفسنا في أقبية قيادة الشرطة. لقد كنتُ سابقاً هنا، عندما أوقفوني أول مرة، قبل سنتين.

لم نكن نعرف لماذا أتوا بنا إلى هنا. قسّم ضابط الخدمة موظّفيه. نزعوا عنا كاجولاتنا ومرّرونا في دهاليز متاهيّة. ضابط من الأمام وضابط من الخلف، وعلى الجانبين جنود مسلّحون ومتحفّزون. حاولوا أن يمنعوا رجال الشرطة الذين كان يرتدون الثياب المدنية من ضربنا. وحسناً فعلوا. فأمام كل مكتب، وعند كل باب، كان رجال شرطة يشتموننا، ويحاولون ضربنا، ويقولون إننا نستحق القتل.

وصلنا إلى مكان لم آتِ إليه من قبل. إنه قاعة المرايا. وهي قاعة طويلة جداً، وعلى الجدار الجانبي مرآة. يمرّرون السجين من هنا، ومَن على الجانب الآخر؟ رجال شرطة، وربما عملاء للشرطة ومرشدون وسائقو سيارات أجرة وصبيان مقاهٍ وأصحاب أكشاك وفنادق ونُزُل. وسيتذكّرون هذه الوجوه إذا ما عدنا ذات يوم إلى الشارع، وسيتمكّنون من التعرّف إلينا والإخبار عنا. الشرطة تفعل ذلك في العالم كلّه.

بدأ العرض. فأخذوا يسيّرون السجين، والنقيب الذي أدار عملية النقل من الثكنة إلى هنا يُبلغ بصوتٍ عالٍ لا يخلو من نبرة الفخر أولئك الموجودين على الجهة الأخرى من المرآة:

فلان، عمره، طوله، متّهَم بكذا، إلخ.

وعندما أتى دوري، صرخ النقيب مضيفاً إلى المعلومات السابقة:

"هذا الشخص يعرج بسبب رصاصة في قدمه."

أدركتُ الآن أني أعرج. بما أني لم أمشِ منذ شهور، فقد كنتُ أجهل أني لا أستطيع أن أتنقّل بلا عناء. أشعر أني لستُ "أعرجَ"، وأن عرجي سيزول. ولكن مع الشهور، تأكّدتُ من عكس ذلك، من أني لا أستطيع أن أحرّك ثلاث أصابع من قدمي اليمنى، وهذا ما يجعلني أمشي بصعوبة. خصّصتُ سنتين كاملتين لكي أتدرّب على المشي بصورة سليمة. هذا لا يظهر، ولكن، حتى اليوم، لا أستطيع أبداً أن أتحاشى العرَج صباحاً عندما أستيقظ في الصباحات الباردة.

41

جعلونا نمرّ أمام المرآة لساعات طويلة. ثم حدثت استراحة مفاجئة. وضعونا في مكان مظلم ذي رائحة كريهة، ممرٍ لا يؤدّي إلى أي مكان، أو أنه أُغلق. واسترخى الجنود الذين كانوا يحمونا، ابتعدوا عدة أمتار لكي يدخّنوا أو يذهبوا إلى المرحاض. عند ذلك هجم أربعة أو خمسة من رجال الشرطة علينا وأخذوا يضربوننا. سقطنا أرضاً، وحدثت ضوضاء، وسُمع أنين السجناء وشتائم رجال الشرطة. علم الجنود بما حدث فهبّوا لطرد رجال الشرطة. وتجدّد الأمر طوال ذلك النهار، عند كل استراحة. وعلى الرغم من تنبّه الجنود، كان أحد رجال الشرطة يندسّ فجأةً بين السجناء ويضرب من يقع تحت يده.

ذهب ضباط الجيش إلى الغداء، واحتجتُ إلى التبوّل، طلبتُ من الجنود، وأنا مقيّد من الخلف. بحثوا عن مفاتيح القيد، لكن الضباط أخذوها معهم. يجب ألا يحلموا بأن يقرّر الرقيب المناوب أن يذهب ويطلب منهم المفاتيح. لحظةَ كدتُ أن أبول في ثيابي، تماسكتُ قليلاً.

تقدّم أحد الجنود وقال لي إنه مستعد لمساعدتي إن أردتُ ذلك.

أجبتُه بنعم.

اجتزنا بضعة أمتار. وأنا خائف قليلاً. فربما كان يريد أن يسلّمني لرجال الشرطة باللباس المدني لكي يضربوني على هواهم. ولكني لم أكن أستطيع الصمود أكثر، وأنا على وشك التبوّل في ثيابي.

قادني الجندي إلى المرحاض. وضع سلاحه قرب الجدار وانحنى أمامي وفتح سحّاب البنطال، وأخرج قضيبي. تبوّلتُ بلذة، وبخجل بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى الجندي. وبعد أن انتهيتُ صرتُ في موقف أسوأ من السابق، والسحاب مفتوح والقضيب في الهواء ويداي من الخلف. نظرتُ إلى الجندي فضحك بعصبية، كطفل. وبكيتُ أنا أيضاً بعصبية، كطفل. انحنى من جديد وأعاد قضيبي وأغلق السحاب. نظرنا أحدنا إلى الآخر، تأثّرتُ مما فعله من أجلي.

أردتُ أن أقول له ذلك، فلم أجد الكلمات.

"شكراً"

"عفواً"

أردتُ أن أقول له كلاماً آخر فلم أجد ما أقوله.

أعادني إلى مكاني.

42

في تشرين الأول 1972. ها قد مر خمسة أشهر على اعتقالي. ذات يوم اقتادوني إلى أمام المحكمة العسكرية، على إحدى القواعد البحرية. لم يكن القاضي موجوداً، بل كان هناك موظف مُغفَل ضخم الجثة، لطيف. كان معه المحضر الذي كُتب في الثكنة. طرح عليّ أسئلة ثانوية، وما قلتُه له لم يكن يهمّه في شيء. ثم جعلني أوقّع على ورقة.

كل سنة، وخلال عشر سنوات، كنتُ أذهب مرةً إلى المحكمة العسكرية. وأحياناً مرتين. لم أهتمّ قطّ بما كانوا يقولونه لي، ولا بما كنتُ أوقّع عليه. كنتُ أوقّع دائماً، ما عدا مرةً واحدة، حيث أعطوني إدانةً. طلبتُ أن أتكلّم مع محاميّ، وكان عقيداً معيَّناً من المحكمة، ولم أره قطّ.

قيل لي إن محاميّ اتصل لكي يقول إنه لا يستطيع أن يأتي.

"إذن لن أوقّع".

قال أحد العقداء إن هذا سيّان عنده، فالآخرون وقّعوا وهذا يكفي.

قيّدوني من خلف، وأخذوني إلى أحد الأبواب ودفعوني بعنف. ولحظةَ كنتُ سأرتطم الجدار برأسي طار سجينان مقيَّدان من خلف أيضاً وحالا بيني وبين الجدار. سقطتُ عليهما بكل ثقلي وآلمتهما. لقد اقتضى حنان السجناء ألا تنكسر جمجمة زميلهم.

وفي أثناء تنقلاتي العديدة إلى المحكمة، تعرّفتُ إلى شاب أشقر، عرفناه جميعاً، وكان محامياً أو في طور التدرّب، غير عسكري، أو ربما يشبه ذلك، ولكنه ليس عسكرياً بالأصل. إنه مدني من تلك الديكتاتورية المدنية العسكرية. كان لطيفاً، وكان يحمل قلماً يجعل السجناء يوقّعون به. كان قلم حبر لا يعمل إلا في زاوية معينة للريشة على الورقة. وكان يقول دائماً العبارة نفسها:

"امسكوه هكذا، من فضلكم، هناك ييتو"

كما هو باللغة البرتونيولية[1]، ييتو تعني: شيء معين.

لحظة كنتُ أكتب هذا، مرت ثمان وعشرون سنة منذ أن ذهبتُ إلى المحكمة أول مرة. بصورة لا تقبل التفسير، ما أزال أشعر نحو هذا الملاك الصغير، مصفّف الشعر جيداً والمهنَدم جيداً وذي الرائحة الزكية، والمحبَّب، ما زلت أشعر نحوه بالاحتقار نفسه الذي كنتُ أشعره يومذاك. لا أشعر بالكراهية نحوه ولا نحو الجلادين؛ بل أشعر بالاحتقار.

---

[1] لغة مزيج بين البرتغالية والإسبانية، يتكلّمها سكان المنطقة الواقعة على الحدود بين الأورغواي والبرازيل.

في بدايــة مكوثــي في الثكنة حاولتُ أن أعدّ الأيام، ولكن بعد فترةٍ مــن الــزمن فقـدت العـد. والآن، عــند مــروري الأول إلى المحكمــة، ولحظــة التوقــيع، أدركتُ أننا في 24 تشرين الأول. اليوم عيد ميلاد أبــويّ الاثــنين معــاً. أمــي بلغــت الثانــية والأربعــين، وأبــي الثامــنة والأربعين.

43

الآن، بعد أن مررتُ أمام المحكمة، وُلد عندي أملٌ بأني لن أعذّب. فقد ظننتُ أني بعد مثولي أمام المحكمة صار لدي أخيراً حقوق، حقوق الأشخاص الذي هم قيد الاتهام.

بعد عدة أيام نقلوني إلى زنزانة في الطابق السادس من مبنى قيادة الشرطة. كان هناك سرير بائس وفراش، ونافذة مسدودة. كانت الزنزانة صغيرةً إلى درجة أني لم أكن أستطيع المشي ولا الوقوف. كان بوسعي فقط أن أجلس على السرير أو أنام عليه. لا يهم، فهذه الزنزانة تشبه فندقاً فخماً مقارنةً بزنزانتي في الثكنة.

شيئاً فشيئاً أخذتُ أكوّن فكرةً عن المكان. كان هناك مئات السجناء في قيادة الشرطة، وكان الطابق الرابع مخصّصاً للنساء، وبعضهن حوامل، وهن صغيرات السن جداً. وكان الطابق الثالث يسمى "المُعدَم" لأنه لم يكن فيه ماء ولا كهرباء. وبالمقابل، كانت الزنزانات مفتوحة، وكان السجناء يستطيعون التنقّل في أرجاء الطابق.

بدأتُ أنظّم نفسي، وأتواصل مع بقية السجناء. وبعد يومين خمّنتُ أن أحداً ما ذكر اسمي عند شبك الدخول إلى الطابق. فُتح باب زنزانتي، وقيل لي أن اخرج.

اقتادوني إلى أحد الكاتب. رأيتُ نقيباً في الجيش. طويل القامة، مكفهرّ الوجه. قيّدني من خلف ظهري، ورماني على إحدى الكراسي. وأوسعني أسئلةً حول أي شيء، ولم يسألني شيئاً يخصّني.

لم يكن لديه وقتٌ يضيّعه، فإما أن أجيبه حالاً أو يرميني في ثكنته في مدينةٍ أخرى.

كان بوسعي أن أتأكّد من أني سأنتهي بالزحف على الأرض ولثم حذائه.

وسيجعلني أندم لأني وُلدت.

ما فعلوه بي حتى الآن لا شيء، فأنا ما أزال كاملاً، وكأن أحداً لم يمسسني.

وإن أخذني فلن يبقى مني شيء.

أخذ يشتمني بكل الطرق، وكان سوقياً، وأراد أن يبدو سوقياً.

في البداية، لم أتمكّن من الرد على ما كان يسألني عنه، على الرغم من أنه كان من الممكن أن أمتلك بعض المعلومات الثانوية. كنتُ أعرف أنه يحاول أن يخيفني، ولكن، على الرغم من معرفتي هذه، لم أستطع الامتناع عن الخوف. أدركتُ أن هذا الحيوان المفترس قادر على أن يفعل ما يعدني به.

قال لي إن أحد رفاقي، ولم أكن أعرفه، موجود في ثكنته، وإنه جعل منه حيواناً.

"إنه يمشي على أربع، كحيوان، وسأجعلك مثله".

حاولتُ أن أبيّن له أني لا أعرف ماذا يريد، وفي الوقت نفسه كنتُ أحاول أن أتحاشى أن يفهم أني أكذب. لا أريد العودة إلى التعذيب، بل أريد أن أكون مقبولاً.

استُؤنفت المحادثة، إذا كان بوسعنا أن نسمّيها محادثة. لاحظتُ أنه سئم، وأنه ربما أتى إلى قيادة الشرطة، وحاول الاستفادة من ذلك في اصطياد شيءٍ ما.

دخل أحدهم، وأراد أن يكلّمه، فأهملني. خرج من الغرفة، ثم عاد بعد قليل وفكّ قيدي، وقال:

"خذوه"!

ولحظة أخذوني، صرخ بي:

"ستذهب معي بعد الظهر".

أمضيتُ نهاري أفكّر بذلك. لم أفكّر بالتعذيب، بل بالتهديد بالتعذيب. وعلى الرغم من هذا انشغل بالي لبعض الوقت. هل قال ذلك فقط حتى يُخيفني؟ هل سيأتي ليأخذني حقاً؟

في وقتٍ متأخّر من الليل هدأ روعي، إذ لن يأخذوني اليوم على الأقل.

44

انصرم أسبوع، وكان الوقت بعدَ الظهر. دون مقدّمات، أُخرجتُ من زنزانتي وقيل لي:

"مع أشيائك كلّها".

وهذا يعني أن أخرج مع كيس بلاستيكي وضعتُ فيه فرشاة أسناني ومعجون الأسنان وصابوناً ومنشفة وكتاباً لـ راي برادبوري تمكّنتُ من الحصول عليه.

"إلى أين سأذهب؟ إلى زنزانة أخرى"؟

ما من كلمة.

وسرعان ما تبيّن لي أنهم لم يأخذوني إلى زنزانة أخرى. ركبنا المصعد إلى الطابق الأرضي، وكان هناك سيارة جيب. وضعوا لي كاجولاً، وقيّدوني خلف ظهري. ها قد عدنا.

أنا الآن في ثكنة أخرى. وضعوني في عربة قطار. بما أن الجيش لم يكن لديه كثيرٌ من الأماكن للسجناء طلب عربات من مؤسسة الخطوط الحديدية ليستخدموها كزنزانات. وجدتُ كرسياً، وسُمح لي أن أجلس.

شرعتُ أستعرض بعقلي ما يمكن أن يسألوني. قلتُ لنفسي: لا شيء خطير. ولكن لا أحد يعلم أبداً. فقد يعذّبونني كثيراً من أجل أشياء تافهة. لا بأس، لن يكون ذلك خطيراً. بعض الهدوء.

تنبّهتُ إلى أنني "محارب قديم" أمضيتُ أشهراً طويلة في الزنزانة. وأنا بصحة جيدة، ونظيف، وعقلي يعمل جيداً، وشبابي ما يزال يقاوم.

بعد ساعة، شعرتُ أن أحداً دخل إلى العربة، بل هم أكثر من شخص. لم أستطع أن أخمّن عددهم. من خلال كاجولي تمكّنتُ من رؤية أحذية. إنهم ضبّاط، فالجنود ليس لديهم هذا النوع من الأحذية. وهم من سلاح الفرسان. وبالتالي غيّرتُ السلاح، من المدفعية إلى الفرسان. وهذا التغيير لا يعني شيئاً، أو ربما كان يعني.

الذين دخلوا كانوا يمزحون، يذكرون اسمي، تصغير اسمي. رفعت يدٌ بضعة سنتيمترات من كاجولي، ما يكفي ليكشف خدي. أُسندتْ سبطانة المسدّس على خدّي. لم يُخفني، ولكنه ضغط بقوة، ورأس المسدّس على العظم، ما آلمني كثيراً.

قال شخص غير الذي كان يصوّب المسدس: "هل نقتله".

فقال صوتٌ آخر: "لا، ربما فيما بعد".

أدركتُ أنهم ثلاثة. سألني أحدهم إن كنتُ أعرف أين أنا. أردتُ أن أستفزّهم، أن أغضبهم وأرى ما سيفعلونه.

"لا أعرف أين أنا، ولكني أعرف أنه ثكنة للفرسان".

كيف عرفت؟

بواسطة الأحذية.

سألني من يحمل المسدس إن كنتُ أعرف من هو.

فقلت نعم.

ضحك الآخرون وقالوا: "إنه يعرفك".

أنزل سلاحه وسألني:

"ما اسمي"؟

لا أعرف اسمك ولكني أعرف لقبك.

ضحكات جديدة.

"وما هو لقبي"؟

قلتُ لقبه.

لقد كان زميلي في الثانوية، منذ ثماني سنوات. لم أره بعدها قطّ. ذاكرتي السمعية تدهشني، فقد احتفظت بصوت هذا الشخص طوال هذه السنوات.

ملأت ضحكاتهم العربة.

ثم ذهبوا.

45

أقبل الليل، وجلبوا لي الطعام. ما من فراش منتظَر. ربما يجب عليّ أن أنام جالساً. ولكن ما يزال الوقت مبكّراً، ويجب أن أنتظر. لم أرَ أي سجين، ولم أستطع أن أكوّن فكرةً عن المكان. العربة موجودة في مكان فسيح. كنتُ أسمع أصوات جنود يمرّون دون توقّف، ووقع خطى على الحصى.

لا أعرف أين يعذّبون. حاول عقلي أن ينظّم المكان ويراقب الزمان ويجد مراجع. شعرتُ أن من المهم أن أعرف أين يعذّبون، ولا أعرف لماذا، فمن غير المهم أن يكون هنا أو هناك.

وعندما أخذوني إلى المرحاض لم أستطع أن أتحقّق من شيء. حفرة الثكنة، ما من علامة فارقة تمكّنني من تحديد مكاني.

ضعتُ. وتاه فكري، دون أن أتمكّن من التحكّم فيه. مرت ثلاث ساعات، أربع. سمعتُ وقع خطى على الحصى، لقد أتوا إلى هنا.

"أنزلوه"!

أنزلني الجنود على درجات العربة.

نحن ذاهبون، ها قد بدأ كل شيء.

دخلنا إلى مكان غريب. أول شيء حدث أنهم صدموا رأسي بشيء ما. وحذّرني أحدهم قائلاً: "انتبه إلى الصارية".

لستُ أدري لماذا سمح لي هذا التفصيل أن أعرف أني موجود في خيمة.

بدأت الصرخات، وتلقّيتُ ضربات عند مروري. ولكن لا شيء خطير.

"الآن، نعم يا ليسكانو، سترى ما هو جيد".

ضربني أحدهم على وجهي. آلمني ذلك لكنه أغضبني أكثر مما آلمني. لقد ضُربتُ مرةً واحدة على وجهي بقبضةٍ في الثكنة الأولى. لا بأس في الضرب على الوجه. أقصد أن أقول إنهم لا يحصلون منه على أية نتيجة، ولكنه مزعج جداً، ويترك آثاراً على الوجه. على سبيل المثال، الأنبوب البلاستيكي أفضل، على الذراعين والساقين. إنه مؤلم جداً، ولكن آثاره لا تظهر. لا أعرف لماذا، ولكني أفضّل كثيراً ضربةً على الظهر أو الصدر على لكمة على الوجه.

اكتشفتُ أنهم سعداء، أو بالأحرى لم يكونوا سعداء، بل كانوا يتسلّون. علمتُ أنهم اعتقلوا امرأةً كانت صديقتي منذ سنتين أو ثلاث. قلتُ لهم إني لا أعرف ذلك، وإني لا أعرف حتى لماذا اعتقلوها.

قالوا لي إن رأيها مختلف.

"مستحيل"

"سنرى ذلك".

لم يكن لديهم أسئلة يطرحونها، هذا ما قاله لي عقلي. ولكن يجب أن أبقى مستعداً، فقد يعذّبونني في أية لحظة، حتى دون أن يكون لديهم أسئلة يطرحونها.

أجلسوني، رفعوا كاجولي، إذ لا يهمهم أن أراهم.

دفعني ذلك إلى تجريب أسلوب آخر، جرئ، أسلوب "محارب قديم" في التعذيب. طلبتُ منهم سيجارة.

قالوا لي إنهم سيعطونيها إذا ما تعاونتُ معهم.

سيان عندي. فليعطوني السيجارة ولنتحدّث. ولكني لا أعرف ماذا يهمّهم.

كان الجالس أمامي ملازماً أولاً، أشعل سيجارة ووضعها بين شفتي.

طلبتُ منهم أن يضعوا قيدي من الأمام.

ضحكوا، ووجدوا أني أتخابث عليهم، وأني أسيء استخدام "حسن ضيافتهم"

وضعوا القيد من الأمام، كما طلبت.

كان كلامهم صراخاً، ويقاطعون بعضهم بعضاً. وأدركتُ أنهم لا يعبؤون باستجوابي أو بعدمه، بل كانوا يتفوّهون بحماقات.

فجأةً وجدوا ما يسألونني عنه: هل نمتُ مع المرأة التي كانت صديقتي، والتي أوقفوها؟

سألوني بطريقة هي الأقذر والأكثر سوقيةً في العالم.

لم أجبهم.

ألحّوا.

هل كانت عذراء عندما عرفتها؟ وما الذي تجيد فعله في السرير؟

أغضبني ذلك أيما غضب. هذا غير عقلاني. كان يجب ألا يهمّني، ولكني لم أستطع ذلك.

لم أجب.

وتابعوا.

كيف تفعل ذلك؟ كيف تفعل ذلك؟

شعرتُ أن الصمت لم يكن جواباً كافياً. ولكي يكون ما أفكّر فيه واضحاً جداً، كلمة كلمة، قلتُ لهم بصوت خافت جداً، وبنبرة قاطعة:

"لن أجيب بشيء".

ما أردتُ أن أسألهم إياه بنبرتي هو إن كانوا يفهمون أن رجلاً، رجلاً حقيقياً، لا يتكلّم في هذه الأمور ولا يسأل أسئلةً كهذه. فأنا، مع القليل الذي بقي لي، وحتى في هذه الظروف، حول هذه النقطة ما أزال رجلاً، حقيقياً.

صمت.

ربما أخطأتُ، ولم يفهموني. حينئذ، نعم، سيغدو ذلك صعباً. وسيكون من الواجب علي أن أفعل شيئاً آخر، وأنا لا أريد. لا أريد أن أتكلّم مع هؤلاء الأشخاص، ولا أريد أن يضربوني.

بلى، لقد فهموا، وغيّروا موضوع الحديث.

على أية حال، بسبب رفضي للإجابة، فقدتُ السيجارة. ومن انتزعها فعل خطفاً، وانتزع معها جزءاً من جلد شفتي. أحسستُ بالألم ونزفت شفتي.

قال الملازم أول: "حسن، هذا يكفي".

قال الذي كان زميلي في المدرسة: "لنتوقّف عن هذه السخافات".

قلتُ لنفسي: سوف يبدؤون تعذيبي.

أوقفوني.

قال الملازم أول لأحد الجنود: "خذوه إلى الإسطبل".

فهمتُ أنهم لن يعذّبوني الآن.

أعادوا وضع الكاجول، وفي الطريق تبيّن لي أننا لم نعد إلى العربة. فلماذا قال الضابط: "إلى الإسطبل"؟.

قلتُ للجنود الذين يرافقونني إني أريد أن آخذ كيسي من العربة.

تردّدوا، ثم قالوا لا، فالأمر الذي أعطي إليهم هو "إلى الإسطبل".

46

دخلنا إلى مكان كان حظيرةً بالفعل. ومن تحت كاجولي لمحتُ أكياس علف للخيول. رموني على فراش. تذكّرتُ كيسي في العربة. لقد أضعتُه. يجب أن أتعب كثيراً لكي يُعيدوه إليّ.

من فراشي بدأتُ أنظر: هناك كيس علف، فراش، كيس فراش. وعلى كل فراش رجل أو امرأة. شيئاً فشيئاً تحرّك أحدهم وتكلم طالباً شيئاً ما. اقتيد إلى التعذيب ثم عاد مبلّلاً. تبيّن لي أن الرجال كانوا أكثر من النساء.

بعد بعض الوقت، رموا لي كيسي البلاستكي وفيه أشيائي فسقط قرب رأسي.

مرّت الأيام ولم يعذّبوني، ولم يستجوبوني. نظّمتُ حياتي على فراشي. رأيتُ وجوهاً معروفة. وبدأتُ أرى النساء، وكنّ مكوجلات، ولكني لمحتُ أجسادهن من تحت لباسهنّ، وسمعتُ أصواتهن. إنها لمتعةٌ أن أراهنّ حتى لو كان ذلك هنا، وحتى في هذه الظروف، وحتى لو كنّ منهَكات. ثمة رائحة أخرى في الهواء، رائحة امرأة، تمتزج بروائحنا وبروائح الإسطبل.

ها قد انقضى أسبوع وأنا هنا، لم أتزحزح عن فراشي.

وذات ظهيرة أتى رقيب.

أمرني أن أجهّز أشيائي، أي كيسي البلاستكي.

سأذهب. لقد أتوا بي إلى هنا لا لشيء. لا أعرف في أي يوم نحن، ولا أعرف في هذه اللحظة إن كان هذا آخر مرور لي في ثكنة، وآخر مرة يضعون فيها لي كاجولاً، وآخر مرة أمرّ في قاعة تعذيب.

الجلوس وانتظار ما سيأتي

1

لستُ أدري لماذا نزعوا لي كاجولي وقيودي قبل صعودي إلى سيارة الجيب. ربما كان ذلك لسبب يتعلّق بإدارة السجناء، أو لأمر غريب حول نقل معتقل. كرّستُ بعض الوقت لهذا السؤال ولم أُنجح في فهمه.

نزع أحد الجنود ربطة عنقه وربط بها إبهاميَّ، وبالربطة نفسها ربط معصميَّ. هذا ما لم أكن أعرفه. إنه عمل عبقري وفعّال مثله مثل القيد. من المستحيل أن أستطيع القيام بأي عمل مع هذه الإبهامين المربوطين. استمتعتُ بهذه المعرفة الجديدة. ولئلا أستطيع أن أرى، عصبوا عينيَّ.

كنتُ جالساً بعكس اتجاه المسير. في الأمام كان السائق ورقيب، وجندي إلى يميني وآخر إلى يساري. تبيّن لي أن مستواي قد انخفض بصورة واضحة، فحتى الآن، كنتُ تابعاً للمسؤول عني، ودائماً كانوا ضبّاطاً. أما الآن، فالنقل يتم تحت إشراف رقيب. أنا سعيد بمعرفة ذلك. فمن الأفضل ألا أكون "مهمّاً"، وأن أكون مغموراً. لم أكن "مهمّاً" قطّ ولكنهم كانوا يرون عكس ذلك.

في سيارة الجيب، لم أتكلّم في شيء. وببعض الحركات من أجفاني تمكّنتُ من إزاحة العصبة، ورأيتُ أين نحن، وعرفتُ الشارع. بدأتُ أفكّر بأن ألقي بنفسي من السيارة، ولكن ليس لكي أقتل نفسي، لا، بل لكي أهرب. إذا ما ألقيتُ بنفسي من الجيب فقد أسقط على ظهري، وقد يصطدم قفاي بالأرض. يجب أن أقوم باستدارة في الهواء لئلا اسقط على الإسمنت. الجنديان مسلّحان بمسدس M2، وهو مسدس آلي، ومعمَّر، ومن المحتمل جداً أن يكون بلا وضعية أمان. وحتى أستعيد توازني وأتمكّن من الجري، سيكون لديهم الوقت الكافي لإطلاق النار. ونحن في النهار، واحتمال أن يُخطئاني معدوم تقريباً. وحتى لو أخطآني فإلى أين سأذهب؟ ليس لدي أي مكان أذهب إليه، ولا أعرف من اعتُقل. بينما كنتُ أفكّر بالهرب، وصلنا إلى المركز. فات الأوان على المحاولة.

فيما بعد، وخلال سنوات عديدة، وأنا أحلم مستيقظاً بهروبات ممكنة، فكرّت بهذا الهروب على أنه كان الفرصة السانحة الوحيدة التي فاتتني. قلتُ لنفسي: لو أني قمتُ بها، فربما كنتُ قد نجوت. ربما أضاع الجنود بعض الوقت حتى يطلقوا النار، وسأكون قد ركضتُ وما كانوا ليلحقوا بي أبداً. وربما كنتُ سأموت في ذلك الصباح. ربما كان من الأفضل لي أن أموت على أن أبقى سجيناً؟ لا، لكن الصور كانت تعود مع فواصل من عدة أشهر: حلم السجين: الهروب والجري، الجري في سهل واسع، أبيض، بلا حدود، وبلا حواجز. وفي النهاية ثمة نور كنور الأصيل، أو

كـنور الفجـر. لا أتمكّـن أبداً من أن أعرف إن كانت الشمس تشرق أم تغـيب. أركـض، وفجـأةً أبـدأ أمـشي، أبحث، لا يوجد طرق، أمـشي في كـل الاتجاهات، أتبع نزوات قدميّ، أمشي، أمشي بلا حـدود. إنهـا الحـرية، الحرية التي أحلم بها، وإمكانية التقرير، والخيار، والعمل، والامتناع عن العمل، والتوقّف عن العمل.

الحـرية طـوال سنوات، وإلى أبد الآبدين، هي الجري في سهل أبيض شاسع في الأصيل.

2

عودة من ثكنة الفرسان إلى قيادة شرطة مونتيفيديو. وبعد عدة أيام، وقع الحدث الكبير: نقلوني إلى زنزانة فيها أشخاص آخرون. إنها غرفة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة. كنا أربعة عشر في "مستودع"، ننتمي إلى السجن المركزي، ولكن ببساطة كمستودع. كان ذلك يضحكنا، فنحن نبدو كبضائع.

ضيق المكان سيّان عندي. إنها المرة الأولى منذ ستة أشهر أستطيع فيها أن أتحدّث فيها مع شخص غير المسؤول عني. بدأتُ أعرف ما حدث في البلاد وفي الثكنات التي لم أُقِم فيها. وكان هناك كتب، على الرغم من استحالة إيجاد ركن معزول للتركيز والقراءة. في المساء، كنا نتناقش حتى وقت متأخر. ولم يكن هناك من فرش للجميع بسبب صغر المساحة. كنا ننام كيفما نستطيع، ولكن ذلك كان أفضل من الزنزانات بكثير، ومن زنزانتي الأولى بخاصة. لم نشعر بالبرد، وكنا نحكي قصصاً، ونمرح. وهذا ما كان جيداً: ليس الراحة، بل الرفاق.

بعد عدة أيام أدركتُ أن السجن هنا، مع هؤلاء الأشخاص جميعاً، كان يسبّب توتّرات وعداوات.

ذات ظهيرة، جلبوا لنا رفيقاً كان في العزل لعدة أشهر. وقدّمنا له ما يأكله وكتباً وكل ما يريده.

لا شيء، لا شيء كان يهمّه إلا النقاش.

بدأ الظلام يخيّم. وأخذ سجينان يضربان على أوانٍ بلاستيكية وصندوق. نهض القادم الجديد وقام بعدة خطوات راقصةً.

صرخنا وصفّقنا له.

واصل الرقص لبعض الوقت.

لم يتوقّف، وأخذ يحرّك جسمه باحثاً عن الإيقاع فوجده أخيراً.

أفسحنا مكاناً وسط الحجرة، وشيئاً فشيئاً انغلقت حلقة من الرجال الجالسين على الأرض، وعلى الفرش، حول ذلك الذي كان يرقص.

كان القادم الجديد يرقص، يرقص مغمضَ العينين، ويدور، ويرفع ذراعه ويحرّك خصره وكتفيه ويثني جسمَه ويتوقّف، ويدور في الاتجاه الآخر.

تعب الموسيقيّان، سئما، لكن الموسيقا لا يمكنها أن تتوقّف، إذا واصل آخرون الضرب. كان يجب أن تستمر الموسيقا لكي يواصل الراقص الطيران والسفر في رقصته، في عالمه هو، في سعادته. كان سعيداً، سعيداً جداً، وقد بدا ذلك على وجهه، وعلى عينيه المغمضتين، وعلى يديه، وعلى جسمه المنساب. منذ أشهر وهو وحيد، وجسمه لم يشعر بحرارة جسم صديق آخر بجانبه. ورقص، رقص جسمه ساعةً، ساعةً ونصف الساعة.

هل هو مريض؟

إذا كان كذلك فهو مريض سعيد.

وعندما توقّف أخيراً، ابتسم ونظر إلينا ثم أخذ يتكلّم.

هل يوجد ما نأكله؟

صار شخصاً آخر، نسي أنه أبقانا أكثر من ساعة في الانتظار، ونحن فرحون، ومنشغلون. لقد زار المكان الذي كان بحاجة إلى زيارته. وعرف أين هو ومع من. وهو الآن شخص آخر، يريد أن يأكل.

3

ذات يـوم أقمـنا احـتفالاً. فقد قيل لأحد رفاقنا في الزنزانة أن زوجـته المعـتقَلة في مكـان آخـر قد وضعت طفلة، وأن الأم والطفلة بـصحة جـيدة. امـتلأت عيـنا الرجل بالدموع. ضممناه إلى صدورنا وغنّينا على شرفه ومزحنا.

عـندئذٍ قـام الـرجل الملـيء بالتصميم بعمل لم يسبقه إليه أحد. وجـد إبـرةً وخـيطاً، خلـع قميصه ثم مزّقه إرباً إرباً ثم أخذ يخيط القطـع، ثـم تـناول قلـم رصـاص، وكان ذا يدين ماهرتين، وخلال نـصف سـاعة اسـتطاع أن يـصنع لعـبةً بعيـنين واسـعتين وأهداب طـويلة وشـفتين حمراوين. وكانت تلك هديته إلى الطفلة الوافدة إلى الدنـيا. كانـت اللعـبة جمـيلة. وكانـت تلك المرةَ الأولى، والوحيدة حتـى ذلـك الحـين، التي أشهد فيها "ولادة" لعبة. لعبة وحيدة، وُلدت على يد رجل، بين عدد من الرجال.

4

بعد أسبوعين نقلوني من جديد. هذه المرة ذهبتُ إلى بونتا دي ريليس، وهو بناء وسط الريف، لكنه كان قريباً من المدينة، وكان ديراً كاتوليكياً.

بعد أسبوع حدث نقل جديد. استدعوني منذ الفجر، وأخذوني إلى ما كان يُدعى سابقاً الكنيسة. وكان هناك مجموعة من نحو خمسة عشر سجيناً.

إلى أين يأخذوننا؟

تمكّن أحدهم من أن يعرف أنهم يأخذوننا إلى معتقل ليبرتاد. كنا كثيراً ما سمعنا عنه، ولكن لا شيء إلا الإشاعات، ولم يكن من أحد يعرف ما هو وما ينتظرنا.

أصعدونا إلى شاحنة مغلقة تماماً أسميناها "الخزانة". قيّدونا بطريقة غير معقولة. أجلسونا على أرض الشاحنة وشكّلنا دائرة، ووجوهنا نحو الداخل، وكانت يدي اليمنى مقيَّدةً مع اليد اليسرى لمن كان يجلس إلى يساري، ويدي اليسرى باليد اليمنى لمن كان على يميني، حتى انغلقت الدائرة.

سرنا طوال أكثر من ساعة، وكان المعتقل على بعد نحو خمسين كيلومتراً من مونتيفيديو. وعندما وصلنا بدأ الهرج والمرج الكبير. فكّوا قيودنا ورمونا من الشاحنة مع أكياسنا. وعندما سقطتُ، أنهضني جندي مزوّد بمطرقة، ولوى ذراعي خلف ظهري، وأخذ يجري خلفي لكي يرغمني على الجري مع الكيس. صعدنا درجاً، صعدنا راكضين عدة طبقات، لا أعرف عددها. فقد كنتُ ألهث تعباً، والجندي تعِبَ أيضاً، لكنه واصل دفعي إلى الأمام.

وصلنا أخيراً إلى قاعة الانتظار، ورأيتُ صفاً طويلاً من الأبواب المعدنية المطلية باللون الرمادي. كما رأيتُ جندياً يقف أمام باب مفتوح. وعندما وصلتُ دفعني الجندي الآخر إلى داخل الزنزانة ثم انصفق الباب خلفي، وكذلك المزلاج.

كان الفجر.

نظرتُ عبر النافذة، فرأيت أسلاكاً شائكة وأنواراً. كنا في وسط الريف لكني لم أكن أراه. وبالمقابل كان بوسعي أن أميّز الأفق. حاولتُ أن أحدد اتجاهي. إذا كان ذاك هو الأفق، فهناك ريو لابلاتا.

أعتقد أن نعم.

عندما حدّدت الاتجاه أويتُ إلى فراشي ونمت.

5

استيقظتُ على قرقعة نافذة باب الزنزانة. حملوا إليّ الفطور. ما كدتُ أتناوله حتى أخرجوني راكضاً. هذه المرة نزلتُ الدرج نزولاً، وهذا أسهل. وضعوني في مكان فيه مرشاشات. أمروني بصياح قوي أن أنزع ملابسي وأستحمّ. لم يكن معي منشفة فجفّفتُ جسمي بثيابي. ثم أعطوني بدلة رمادية وحذاءً قماشياً. لبستُ وانتعلت. أجلسوني على صندوق وقام أحد الجنود بقص شعري، على الصفر. ثم أخذوني على بعد عدة أمتار من هناك، إلى باب مقابل.

إنه المستوصف، رجال يلبسون ملابس بيضاء، مع لباس موّحد أخضر فوقها، وينتعلون أحذية عسكرية. سألوني:

"هل أنت مصاب بالداء السكّري؟ هل أصبتَ بالسل؟ هل تعاني من ألم بالقلب؟ هل معك الداء الزهري؟..."

"الآن، اخلع ثيابك".

عندما فحصوني لم يروا جراح قدمي، فقد تحايلتُ بألا يروها.

"استدِر"!

"انحنِ"!

"باعِد بين إليتيك"!

لم أعرف ما يريد فلم أتحرّك.

لمسني بإصبعه وقال:

"ألم تسمع"؟

قلتُ إني لم افهم.

قال ساخراً: خذ إليتيك بين يديك وباعد بينهما، هل فهمتَ الآن"؟

فهمت.

"التالي"!

خرجتُ وأخذوني إلى الزنزانة نفسها. وفي الطريق قيل لي أن أسترجع كيسي الموجود في نهاية الممر. أي سكون شعرتُ به وأنا أستعيد كيسي الذي يشبه بيت السجين، حيث يوجد كل ما يحتاج إليه، وما يُسمح له بامتلاكه!

في الزنزانة وُضع فراش ووسادة وبطانيتان، وطبق عميق وطبق مسطّح وطبق للتحلية وإبريق ماء من الألمنيوم، وكلها تفوح منه رائحة المعقّم.

بعد أن انتهيتُ من تفحّص الأشياء الجديدة التي تركوها لي، فتح الباب بينما كنت أحاول أن "أرى نفسي" في اللباس الموحّد الرمادي الخشن، وله رقم على الصدر، وبينما أحسستُ بالبرد لأني لم أكن أرتدي شيئاً تحت اللباس الموحَّد. فتح الباب.

كان في الخارج رقيب وجنديان. أمروني أن أجمع أشيائي كلها، وكذلك فراشي.

صار لدي أشياء كثيرة، ومن الصعب نقلها كلها دفعة واحدة. فعلتُ ما بوسعي. لففتُ الفراش في إحدى البطانيات ووضعتُ أشيائي بداخلها، رفعتُها على كتفي، وتركتُ يداً حرة لكي أحمل كيسي. نزلنا الدرج، وكان ذلك صعباً مع هذا الحمل، ولكن مع مرور السنوات، صرتُ ماهراً في حمل "كل شيء" دفعةً واحدة.

وصلنا إلى طابق آخر، لا أعرف رقمه، ثم وضعوني في الزنزانة رقم 14. نظرتُ لبعض الوقت من النافذة، الريف دون أية شجرة. وخط الأفق هذا يجب أن يكون ريو دو لابلاتا أو ريو سانتا لوسيا.

رتّبتُ سريري وأعدتُ تنظيم أشيائي، جلستُ وأخذتُ أنتظر، لا أعرف ماذا، ولكن كان يجب عليّ أن أنتظر شيئاً ما. وقد عرفته بعد وقت طويل: جلستُ أنتظر عربة المجانين، تلك العربة التي ستأخذني ذات يوم في رحلة عبثية نحو الحرية.

6

كنتُ في الطابق الثاني من المؤسسة العسكرية للاعتقال رقم 1، المعروفة باسم مركز اعتقال ليبرتاد. كنا على ما أعتقد في 23 تشرين الثاني نوفمبر 1972، أعرج من رجلي اليمين. في هذا المكان وفي هذا الطابق سوف أمضي اثني عشر عاماً وأربعة أشهر وعشرين يوماً.

هنا صرتُ بالغاً، وشابت أولى شعراتي. وهنا تعرّفتُ إلى أعزّ أصدقائي، وقرأت آلاف الكتب الجيدة والمقبولة والضعيفة والسيئة. هنا تعلّمتُ كثيراً من الأشياء من السجناء الآخرين، واجتهدتُ في أن أتعلّم شيئاً ما من نفسي. تألّمت من البرد، وتعرّضتُ للعقوبات والأمراض والوعكات وحالات القلق والانهيار. هنا عشتُ مآسيَ جديدة، مآسيَّ أنا ومآسي الآخرين. وشهدتُ أعمال تضامن وتعاون وتآخٍ غير مسبوقة بين الرجال الذين كانوا محرومين من كل شيء، مثلي. لقد شعرتُ أني بدأتُ أشيخ. وبدأتُ أكتب، وقرّرتُ أن أصبح كاتباً.

عندما غادرتُ الطابق الثاني كنتُ أعرجُ، كما في البداية، من القدم اليسرى من جديد، بسبب التواء حصل لكاحلي وأنا ألعب آخر مباراة كرة قدم لعبها السجناء السياسيون في هذا المعتقَل.

في 13 آذار 1985، اقتادونا إلى قيادة شرطة مونتيفيديو، حيث أمضيتُ ليلةً في الطابق الرابع، ممدّداً على فراش لأني لم أكن أستطيع المشي. وعندما تركتني العربة أمام بيت أهلي، لم يكن هؤلاء موجودين. كانت أختي تنتظرني، بكينا معاً لبعض الوقت، ثم نمت متأخراً جداً في تلك الليلة.

في اليوم التالي استيقظتُ منذ الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وأنا مسكون بفكرة أني يجب أن أفعل شيئاً ما في حريتي. لم أعرف ما ستكونه حياتي، ما عدا شيء واحد: سوف أنشر أوراق سجني، *بيت الطاغية*، الطريقة ولعبات السجن الأخرى، المراسل، صحيفة المراسل، وقصائدي وملاحظاتي، وسوف أكرّس اهتمامي للكتابة. لا أعرف إن كان ذلك سيشغلني طوال ما تبقّى من حياتي، ولكن على الأقل حتى اللحظة التي سأشعر فيها أنه لم يعد لدي ما أقوله أو ما أكتبه. وحتى إشعار آخر، هذا ما سيكون محور حياتي.

هذا الصباح شعرتُ أن حياتي تعود إليّ، أنها لي، لي وحدي، وأن بوسعي أن أفعل بها ما أشاء. ولكني أدركتُ فيما بعد أن ذلك أصعب بكثير من أكون سجيناً.

في 15 آذار، كانت ساعاتي الأولى كرجل حر. بعد ثلاثة أيام، في 18 آذار بلغت السادسة والثلاثين من عمري. في السادسة

والثلاثين ما يزال الإنسان قادراً على القيام بأمور كثيرة. وعلى الرغم من الزمن الذي أمضيتُه في السجن، بقي جسمي سليماً وقوياً. كم من السنوات بقي لي؟ وكم من السنوات أحب أن أعيش أيضاً؟ ثلاثين؟ ليس بهذا القدر، عشرين؟ لنقل عشرين. طوال هذه السنوات العشرين، عليَّ أن أعيش حريتي، وألا أخدع نفسي أبداً، أو أن أخدع نفسي بأقل ما يمكن. في تلك اللحظة فكرتُ أن بوسعي أن أصل إلى ذلك، أن أحدّد لنفسي هدفاً وأن أسير نحوه، ضد كل ما سيعترضني، ودون أن أقترف أخطاء.

لم أدرك أني بهذه الطريقة سوف أتابع حياتي، دون أن أريد ذلك، ودون أن أعرفه، ودون أن أصدّقه. وطوال سنوات ظللت مأخوذاً بعجلة المساجين: هاجس الاستفادة من الزمن، والعمل والتعلّم والمعرفة. وبالطريقة نفسها، إن أشياء كثيرة في الحياة بقيت خارج اهتمامي. وعندما اكتشفتُ ذلك كان الأوان قد فات، ولكن هذا هو الخيار الذي اخترته. هذا الإحصاء، وهذا الاختيار لبعض مراكز الاهتمام، مهملاً أشياء أخرى. وحتى من باب الخطأ، كانت طريقتي في ممارسة حريتي.

في بعض الأمسيات كنتُ أروي لبعض أصدقائي قصصاً ممتعة عن المساجين. ولكني بقيتُ لمدةٍ طويلة أرفض الكتابة عن السجن. فقد أحسستُ أني عاجز عن كتابة أي شيء سوى سلسلة لا تنتهي من الخيبات الخالية من التعقيد والقيمة الأدبية.

مرت سبع وعشرون سنة قبل أن أجد صوتاً يمكنه أن يتكلّم عن الزمن القديم. وسيكتشف هذا الصوت يوماً أن بين الفرد المعزول

والكلمة علاقة قيّمة جداً، وذات أهمية أدبية وجديرة بأن تُروى، وكتبتُ *لغة الوحدة*، وظننت أنها كل ما يمكنني أن أكتبه.

ولكن في يوم آخر، وبعد سنة، شقّ الصوت لنفسه طريقاً، وفرض نفسه عليّ، وأراد أن يقول ويحكي بقيمة أو بلا قيمة، بأهمية أدبية أو بدونها. وصار من المستحيل إيقاف هذا الصوت، وصار يقول لي ماذا أكتب، وصار ينبش من النسيان أحداثاً وانطباعات ومشاعر لم أكن لأتذكّرها.

بلغت آنذاك الحادية والخمسين من عمري، وصرت رجلاً ذا عمر لا بأس به، وهذه طريقة لبقة لأقول بأني بدأت أدخل الشيخوخة. كذلك كنت ما أزال حائراً فيما يخص ممارسة الحرية مثلما كنتُ في 14 آذار 1985، عندما كنتُ في عربة المجانين. سأواصل البحث عنها، والتدرّب عليها، والاعتقاد بأني وجدتُها أحياناً، والإحساس في مرات أخرى بأني فقدتُها. في بعض الأيام، وهي قليلة، أيام حزينة وساعات سيئة، أقول لنفسي إن سنوات السجن انتزعت مني فرصي، كفرصة الدراسة مثلاً. أبداً، لم أشعر في أية لحظة أن السجن أفقرني فكرياً.

لهذا السبب كتبت في إحدى ليالي 1999، بعد سبعة وعشرين سنة على اعتقالي:

قبل ثلاثين سنة، سواءٌ في السلطة أو أمواتاً
كنا شباباً، وكنا كثيرين
ولم نأتِ إلى الحياة إلا
لنغيّر العالم

7

جسدي الذي كان طوال سنوات كثيرة الشيء الوحيد الذي أملكه، وعلى الرغم من الضربات والمآسي والاشمئزاز الذي اعتراني بسببه، هو اليوم، وعلى طريق الشيخوخة، ذلك الحيوان الصديق، وما يزال وفياً.

أريد أن أقول هذا، وأقوله له، بالكلمات الأكثر عادية التي يمكن أن يجدها إنسان معتاد على العمل بالكلمات: أفضّل أن أختار موتَ جسدي: اليومَ والمكانَ والطريقة. وأن يكون موتاً هادئاً وسليماً. وأودُّ أن أقول شيئاً غير عقلاني أبداً: أريد أن تكون عظامي قرب عظام أبويّ، إن كان ذلك ممكناً. الشيء الوحيد الذي طلبتُه من جسمي تحت التعذيب، هو أن يسمح لي ذات يوم أن أنظر إلى عظامهما مقابلي نظرةً شخصٍ كريم.

مونتيفيديو
أيلول 2000 - أيار 2001

هذه الرواية: أكثر من أن تكون شهادة على ما كابده الشاب كارلوس ليسكانو، ابن الثالثة والعشرين، عندما رماه النظام العسكري في السجن، في مونتفيديو عام 1972.

هذه الرواية أكثر من أن تكون تفكيراً عميقاً في شهوة الإنسان التي لا تنطفئ للحياة، وفي سبر ما لا يمكن تخيّله.

دون صراخ ودون غضب، سوف نرى ذلك الشاب المعتقل يتطوح بين الضحايا والجلادين كي يعترف بما لا يعرفه. سوف نرى مقاومة القمع العبثي، والصداقة بين المقاومين، والانفتاح من ظلام السجن على العالم، وقبل ذلك كله وبعده، سوف نرى قوة الكتابة المحررة.

هذه الرواية إذن هي قوة الكتابة المحررة.

تصميم الغلاف

دار الحوار للنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339